تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء الثاني والعشرون

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى

١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء الثانى والعشرون

وَمَنْ يَقْنُتْ مِنْكُنَّ لِلَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَعْمَلْ صَالِحًا نُؤْتِهَا أَجْرَهَا مَرَّتَيْنِ وَأَعْتَدْنَا لَهَا رِزْقًا كَرِيمًا (٣١)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

يقنت : أي يخشع ويخضع ، وأعتدنا : هيأنا وأعددنا ، كريماً : أي سالماً من كل آفة وعيب .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر زيادة عقابهن إذا أتين بفاحشة مبينة ، أتبعه بذكر ثوابهن إذا هن عملن صالح الأعمال — مع ما هيأه لهن من الرزق الكريم فى الدنيا وفى الآخرة ، ففى الدنيا يوفقن إلى إنفاق ما يرزقن على وجه يكون لهن فيه عظيم الأجر والثواب ولا يخشين من أجله العقاب ، وفى الآخرة يرزقن ما لا يحدّ ولا يوصف من غير نكد ولا كدر .

الإيضاح

(ومن يقنت منكنّ لله ورسوله وتعمل صالحا نؤتها أجرها مرتين) أى ومن تطع منكن الله ورسوله وتعمل صالح الأعمال نضاعف لها الأجر والمثوبة ، لكرامتها علينا بوجودها فى بيت النبوة ومنزل الوحى ونور الحكمة وعين الهداية .

(وأعتدنا لها رزقا كريما) أى وزيادة على هذا أعددنا لها الكرامة فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فلأنها تكون مرموقة بعين الغبطة لدى نساء العالمين، ومنظورا إليها نظرة المهابة والإجلال ، وأما فى الآخرة فلما لها من رفيع الدرجات ، وعظيم المنازل عنده تعالى فى جنات النعيم .

يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا (٣٣) وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا (٣٤)

شرح المفردات

أصل أحد وَحَد بمعنى الواحد وهو فى النفى عام للمذكر والمؤنث ، والواحد والكثير : أى لستنّ كجماعة واحدة من جماعات النساء ، فإذا استقريت أُمّة النساء جماعة جماعة لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والمسابقة ، والاتقاء بمعنى الاستقبال ، وهو بهذا المعنى معروف فى اللغة قال النابغة :

سقط النَّصيفُ ولم تُرد إسقاطه فتناولته واتقتنا باليـــد

أى استقبلتنا باليد قاله أبوحيان فى البحر، ومنه قوله تعالى : «أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ» . فلا تخضعن بالقول : أى فلا تجبن بقول خاضع لين، أى إذا استقبلتن أحدا فلا تلنَّ الكلام ولا ترققنه ، مرض : أى ريبة وفجور ، قولا معروفا : أى حسنا بعيدا من الريبة غير مُطمِع لأحد ، قرن ، من قرّ يقَرّ من باب علم وأصله اقررن دخله الحذف ، والتبرج : إبداء المرأة من محاسنها ما يجب عليها ستره ، والجاهلية الأولى : هى الجاهلية القديمة جاهلية الكفر قبل الإسلام ، وهناك جاهلية أخرى هى جاهلية الفسوق فى الإسلام ، والرجس : فى الأصل الشىء القذر؛ والمراد به هنا الإثم المدنس للعرض ، واذكرن ما يتلى فى بيوتكن : أى وعظن الناس بما يتلى فى بيوتكنّ ، وآيات الله : هى القرآن ، والحكمة : هى السنة وحديث الرسول .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما اختص به أمهات المؤمنين من مضاعفة العذاب والثواب ، أردف ذلك ببيان أن لهن مكانة على بقية النساء ، ثم نهاهن عن رخامة الصوت ولين الكلام إذاهن استقبلن أحدا حتى لا يطمع فيهن مَن فى قلبه نفاق ، ثم أمرهن بالقرار فى بيوتهن ونهاهن عن إظهار محاسنهن كما يفعل ذلك أهل الجاهلية الأولى ، ثم أمرهن بأهمّ أركان الدين ، وهو إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وطاعة الله ورسوله فيما يأمر وينهى ، لأنه تعالى أذهب الآثام عن أهل البيت وطهرهم تطهيرا ، ثم أمرهن بتعليم غيرهن القرآن وما يسمعنه من النبى صلى الله عليه وسلم من السنة .

الإيضاح

(يا نساء النبى لستن كأحد من النساء) أى يا نساء النبى إذا استُقْصِيت النساء جماعةً لم يوجد منهن جماعة واحدة تساويكن فى الفضل والكرامة .

والخلاصة — إنه لا يشبهكُن أحد من النساء ولا يلحقُكُنَّ فى الفضيلة والمنزلة .

(إن اتقيتن فلا تخضعن بالقول فيطمع الذى فى قلبه مرض وقلن قولا معروفا) أى إذا استقبلتن أحدا من الرجال فلا ترققن الكلام فيطمع فى الخيانة من فى قلبه فساد وريبة من فسق ونفاق ، وقلن قولا بعيدا عن الريبة غير مطمع لأحد .

وتفسير الاتقاء بهذا المعنى أبلغ فى مدحهن ، إذ لم يعلق فضلهن على التقوى ، ولا نهين عن الخضوع بها ، إذ هن متقيات لله فى أنفسهن ، والتعليق يقتضى بظاهره أنهن لسن متحليات بالتقوى قاله فى البحر ، وقال فى الكشاف : إن المعنى إن أردتن التقوى ، أو إن كنتن متقيات اه ، يريد إن اتقيتن مخالفة حكم الله تعالى ورضا رسوله صلى الله عليه وسلم .

وإجمال هذا — خاطبن الأجانب بكلام لاترخيم فيه للصوت ولا تخاطبنهم كما تخاطبن الأزواج .

ولما أمرهن بالقول المعروف أتبعه بذكر الفعل فقال :

(وقرن فى بيوتكن) أى والزمن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة ، وهو أمر لهن ولسائر النساء ، أخرج الترمذى والبزّار عن ابن مسعود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن المرأة عورة فإذا خرجت من بيتها استشرفها الشيطان ، وأقرب ما تكون من رحمة ربها وهى فى قعر بيتها » .

(ولا تبرجن تبرج الجاهلية الأولى) أى ولا تبدين زينتكن ومحاسنكن للرجال كما كان النساء يفعلن ذلك فى الجاهلية قبل الإسلام .

وبعد أن نهاهن عن الشر أمرهن بالخير فقال :

(وأقمن الصلاة وآتين الزكاة وأطعن الله ورسوله) أى وأدّين الصلاة على الوجه القيم المعتبر شرعا ، وأعطين زكاة أموالكن كما أمركن الله .

وخص هاتين العبادتين بالذكر لما لهن من كبير الآثار فى طهارة النفس وطهارة المال .

وأطعن الله ورسوله فيما تأتين وما تذرن واجعلن نصب أعينكن اتباع الأوامر وترك النواهى .

ثم ذكر السبب فى هذه الأوامر والنواهى على وجه عام فقال :

(إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا) أى إنما يريد الله ليذهب عنكم السوء والفحشاء يا أهل بيت الرسول ويطهركم من دنس الفسق والفجور الذى يعلق بأرباب الذنوب والمعاصى .

وأهل بيته صلى الله عليه وسلم من كان ملازما له من الرجال والنساء والأزواج والإماء والأقارب ، وكلما كان المرء منهم أقرب وبالنبى أخص وألزم كان بالإرادة أحق وأجدر ، وعن ابن عباس قال : «شهدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم تسعة أشهر يأتى كل يوم باب على بن أبى طالب عند وقت كل صلاة فيقول: السلام عليكم ورحمة الله إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرا ، الصلاة يرحمكم الله ، كل يوم خمس مرات » .

ثم بين ما أنعم به عليهن من أن بيوتهن مهابط الوحى بقوله :

(واذكرن ما يتلى فى بيوتكن من آيات الله والحكمة) أى واذكرن نعمة الله عليكن بأن جعلكن فى بيوت تتلى فيها آيات الله وما ينزل على الرسول من أحكام الدين ولم ينزل به قرآن ، فاحمدن الله على ذلك واشكرنه على جزيل فضله عليكن .

ولا يخفى ما فى هذا من الحث على الانتهاء والائتمار فيما كُلِّفْنَه ، كما لا يخفى ما فى تسمية ما نزل عليه من الشرائع بالحكمة ، إذ فيه الحكمة فى صلاح المجتمع فى معاشه ومعاده ، فمن استمسك به رَشَد ، ومن تركه ضلّ عن طريق الهدى ، وسلك سبيل الردى .

(إن الله كان لطيفا خبيرا) أى إن الله كان ذا لطف بكنّ ؛ إذ جعلكن فى البيوت التى تتلى فيها آياته وشرائعه ، خبيرا بكنّ إذ اختاركن لرسوله أزواجا .

إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ، أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيماً (٣٥)

شرح المفردات

الإسلام : الانقياد والخضوع لأمر الله ، والإيمان : التصديق بما جاء عن الله من أمر ونهى ، والقنوت : هو الطاعة فى سكون ، والصبر : تحمل المشاق على المكاره والعبادات والبعد عن المعاصى ، والخشوع : السكون والطمأنينة ، أعد الله لهم مغفرة : أى هيأ لهم مغفرة تمحو ذنوبهم ، وأجرا عظيما : أى نعيا عند ربهم يوم القيامة .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه نساء نبيه صلى الله عليه وسلم بأشياء ونهاهن عن أخرى ، ذكر هنا ما أعد للمسلمين والمسلمات من الأجر والكرامة عنده فى الدار الآخرة ، روى أحمد عن عبدالرحمن بن شيبة قال : «سمعت أم سلمة زوج النبى صلى الله عليه وسلم تقول : قلت للنبى صلى الله عليه وسلم : ما لنا لانذكر فى القرآن كما يذكر الرجال ؟ قالت فلم يرُعْنى منه ذات يوم إلا نداؤه على المنبر ، وأنا أسرح رأسى فلففت شعرى ثم خرجت إلى حجرة من حجرهن فجعلت سمعى عند الجريد فإذا هو يقول على المنبر يأيها الناس إن الله يقول فى كتابه : (إن المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات ـ إلى قوله : أعد الله لهم مغفرة وأجرا عظيما) .

الإيضاح

ذكر الله سبحانه الأوصاف التى يستحق بها عباده أن يمحو عنهم زلاتهم ويثيبهم بالنعيم المقيم عنده وهى :

(١) إسلام الظاهر بالانقياد لأحكام الدين فى القول والعمل .

(٢) إسلام الباطن بالتصديق التام والإذعان لما فرض الدين من الأحكام وهذا هو الإيمان .

(٣) القنوت وهو دوام العمل فى هدوء وطمأنينة كما قال: « أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ؟ » وقال : « يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ » .

فالإسلام والانقياد مرتبة تعقبها مرتبة الإذعان والتصديق وينشأ عن مجموعهما القنوت والخشوع .

(٤) الصدق فى الأقوال والأعمال ، وهو علامة الإيمان كما أن الكذب أمارة النفاق ، فمن صدق نجا ، وفى الحديث « عليكم بالصدق فإنه يهدى إلى البر وإن البر يهدى إلى الجنة ، وإياكم والكذب فإن الكذب يهدى إلى الفجور وإن الفجور يهدى إلى النار » .

(٥) الصبر على المكاره وتحمل المشاق فى أداء العبادات وترك الشهوات .

(٦) الخشوع والتواضع لله تعالى بالقلب والجوارح ابتغاء ثوابه وخوفا من عقابه كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

(٧) التصدق بالمال والإحسان إلى المحاويج الذين لا كسب لهم ولا كاسب ، وقد ثبت فى الصحيح « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله ... ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وفى حديث آخر « والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار » .

(٨) الصوم فإنه من أكبر العون على كسر الشهوة كما روى ابن ماجه من قوله صلى الله عليه وسلم «والصوم زكاة البدن» أى إنه يزكيه ويطهره من الأخلاط الرديئة طبعاً وشرعاً ، وجاء عنه صلى الله عليه وسلم « يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء » .

(٩) حفظ الفروج عن المحارم والآثام كما جاء فى الآية الأخرى : « وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ. إِلاَّ عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَامَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ، فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ » .

(١٠) ذكر الله ذكرا كثيرا بالألسنة والقلوب ، روى عن مجاهد أنه قال : لا يكتب الرجل من الذاكرين الله كثيرا حتى يذكر الله تعالى قائما وقاعدا ومضطجعا. وأخرج النسائى وابن ماجه وأبو داود وغيرهم عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إذا أيقظ الرجل امرأته من الليل فصليا ركعتين كانا تلك الليلة من الذاكرين الله كثيرا والذاكرات». وروى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سبق المفردون ، قالوا وما المفردون ؟ قال الذاكرون الله كثيرا والذاكرات » وروى أحمد عن سهل بن معاذ الجهنى عن أبيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « إن رجلا سأله فقال : أى المجاهدين أعظم أجرا يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله تعالى ذكراً ، قال فأى الصائمين أكثر أجراً ؟ قال صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله عز وجل ذكراً ، ثم ذكر الصلاة والزكاة والحج والصدقة كل ذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثرهم لله ذكراً. فقال أبو بكر لعمر رضى الله عنهما : ذهب الذاكرون بكل خير ، فقال صلى الله عليه وسلم : أجل » .

هؤلاء الذين جمعوا هذه الأوصاف يمحو عنهم ذنوبهم ويؤتيهم الأجر العظيم فى جنات النعيم .

قصة زينب بنت جحش

زواجها لزيد بن حارثة مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، طلاقها منه ، زواجها لرسول الله صلى الله عليه وسلم لإبطال عادة جاهلية ، وهى إعطاء المتبنى حكم الابن فى حرمة زواج امرأته بعد طلاقها .

وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ، وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلاَلاً مُبِينًا (٣٦) وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ ، فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْلاَ يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا. وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولاً (٣٧) مَا كَانَ عَلَى النَّبِىِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللهُ لَهُ سُنَّةَ اللهِ فِى الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُورًا (٣٨) الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاَتِ اللهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلاَ يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللهَ وَكَفَى بِاللهِ حَسِيبًا (٣٩) مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا (٤٠)

شرح المفردات

تقول ما كان لفلان أن يفعل كذا : أى لاينبغى له ، والخيرة : الاختيار ، مبينا : أى ظاهر الانحراف عن سَنَن الصواب ، أنعم الله عليه: أى بالإسلام ، وأنعمت عليه:

أى بالعتق ونيل الحرية ، واتق الله : أى فى أمرها ولا تطلقها ضرارا ، وتخشى الناس: أى تخاف من اعتراضهم وقولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه ، والوطر : الحاجة ؛ والمراد أنه لم يبق له بها حاجة الزوجية فطلقها ، زوجناكها : أى جعلناها زوجة لك ، والحرج: المشقة ، فرض له : أى قدر من قولهم فرض للجند كذا أى قدر لهم ، سنة الله : أى سن الله ذلك سنة ، خلوا : أى مضوا ، قدرا مقدورا : أى مقضيا وكائنا لا بد منه .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله نبيه أن يخير زوجاته بين البقاء معه والتسريح سراحا جميلا وفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يريد ضررا لغيره ، فمن كان ميله إلى شىء مكنه منه وترك حظ نفسه لحظ غيره — ذكر هنا أن زمام الاختيار ليس بيد الإنسان فى كل شىء كما أعطى ذلك للزوجات ، بل هناك أمور لا اختيار لمؤمن ولا مؤمنة فيها وهى ما حكم الله فيه ، فما أمر به فهو المتبع ، وما أراد النبى صلى الله عليه وسلم فهو الحق ، ومن خالفهما فقد ضل ضلالا مبينا .

وقد نزلت هذه الآيات فى زينب بنت جحش بنت عمة النبى صلى الله عليه وسلم أميمة بنت عبد المطلب وقد خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم على مولاه زيد ابن حارثة فأبت وأبى أخوها عبد الله بن جحش فنزل: وما كان لمؤمن ولا مؤمنة الخ فلما نزلت قالا رضينا يا رسول الله فأنكحها إياه وساق عنه إليها مهرها ستين درهما وخمارا وملحفة ودرعا وإزارا وخمسين مدًّا من طعام وثلاثين صاعا من تمر .

والحكمة فى هذا الزواج الذى لم يبال فيه النبى بإباء زينب ورغبتها عن زيد ، أن التصاق الأدعياء بالبيوت واتصالهم بأنسابها كان أمرا تدين به العرب وتعده أصلا ترجع إليه فى الحسب والشرف ، وكانوا يعطون الدعىّ جميع حقوق الابن ويجْرون عليه الأحكام التى يعطونها للابن حتى الميراث وحرمة النسب — فأراد الله

محو ذلك بالإسلام حتى لا يعرف إلا النسب الصريح ومن ثم قال فى أول السورة « وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ذَلِكُمْ قَوْلُكُمْ بِأَفْوَاهِكُمْ وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيلَ . ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِنْدَ اللهِ » وبهذا حرم على المسلمين أن ينسبوا الدعىّ إلى من تبناه ، وأن يكون للمتبنَّى إلا حق المولى والأخ فى الدين وحظر عليهم أن يقتطعوا له من حقوق الابن لا قليلا ولا كثيرا .

وما رسخ فى النفوس بحكم العادة لا يمكن التخلص منه إلا بإرادة قوية تَسْخَر بسلطانها ، ولا تجعل لها حكما فى الأعمال إذا كانت المصلحة فى خلاف ذلك ، ومن ثَمَّ ألهم الله رسوله أن يلغى هذا الحكم بالعمل كما ألغى بالقول فى أحد عتقاه ، ومن ثمّ أرغم بنت عمته لتتزوج بزيد وهو متبناه ليكون هذا الزواج مقدمة لتشريع إلهى جديد .

ذاك أنه بعد أن تزوجها زيد شمخت بأنفها عليه وجعلت تفخُر عليه بنسبها ، فاشتكى منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المرة بعد المرة وهو عليه السلام يغلبه الحياء حينئذ فى تنفيذ حكم الله ويقول لزيد أمسك عليك زوجك واتق الله ، إلى أن غلب حكم الله وسمح لزيد بطلاقها ، ثم تزوجها بعد ذلك ليمزق حجاب تلك العادة كما قال : « لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللهِ مَفْعُولًا » ثم أكد هذا بقوله : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا » .

الإيضاح

(وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم) أى ليس لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله قضاء أن يتخيروا من أمرهم غير الذى قُضى فيهم ويخالفوا أمر الله ورسوله وقضاءهما ويعصياهما .

والخلاصة — لاينبغى لمؤمن ولا مؤمنة أن يختارا أمرا قضى الرسول بغيره .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبينا) أى ومن يعص الله ورسوله فيما أمرا ونهيا فقد جار عن قصد السبيل وسلك غير طريق الهدى والرشاد ، وقد علمت فيما سلف سبب نزول هذه الآية .

ونحو الآية قوله : « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » .

ثم ذكّر الله نبيه بما وقع منه ليزيده تثبيتا على الحق وليدفع عنه ماحاك فى صدور ضعاف العقول ومرضى القلوب فقال :

(وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله) أى واذكر أيها الرسول حين قولك لمولاك الذى أنعم الله عليه فوفّقه للإسلام وأنعمت عليه بحسن تربيته وعتقه وتقريبه منك : أمسك عليك زوجك زينب واتق الله فى أمرها ولا تطلقها ضرارا وتعللا بتكبرها وشموخها بأنفها ، فإن الطلاق يشينها ، وربما لايجد بعدها خيرا منها .

وفى التعبير بأنعمت عليه إيماء إلى وجه العتب بذكر الحال التى تنافى ما صدر منه عليه السلام من إظهار خلاف ما فى نفسه ، إذ هذا إنما يكون حين الاستحياء والاحتشام ، وكلاهما مما لاينبغى أن يكون مع زيد مولاه .

(وتخفى فى نفسك ما الله مبديه) أى وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه بما ألهمك الله أن تمتثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك ، وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا تزوج محمد مطلقة متبناه ، فأنت تخفى فى نفسك ما الله مبديه من الحكم الذى ألهمك .

(وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه) أى وتخاف من اعتراض الناس والله

الذى أمرك بهذا كله أحق وحده بأن تخشاه ، فكان عليك أن تمضى فى الأمر قُدُما تعجيلا لتنفيذ كلمته وتقرير شرعه .

ثم زاد الأمر بيانا بقوله :

(فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لـكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً) أى فلما قضى زيد منها حاجته وملّها ثم طلقها جعلناها زوجا لك لترتفع الوحشة من نفوس المؤمنين ولا يجدوا فى أنفسهم حرجا من أن يتزوجوا نساء كنّ من قبل أزواجا لأدعيائهم .

(وكان أمر الله مفعولا) أى وكان ماقضى الله من قضاء كائنا لامحالة ؛ أى إن قضاء الله فى زينب أن يتزوجها رسول الله كائن ماض لابد منه .

روى البخارى والترمذى «أن زينب رضى الله عنها كانت تفخر على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم تقول زوجكن أهلوكن وزوجنى الله تعالى من فوق سبع سموات » وأخرج ابن جرير عن الشعبى قال : «كانت تقول للنبى صلى الله عليه وسلم إنى لأُدِلُّ عليك بثلاث ما من نسائك امرأة تُدِلُّ بهن : إن جدى وجدك واحد ، وإنى أنكحك الله إياى من السماء ، وإن السفير لجبريل عليه السلام » .

ثم أكد ما سلف بقوله :

(ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له) أى ليس على النبى حرج فيما أحل الله له من نكاح امرأة من تبناه بعد فراقه إياها .

ثم بين أن الرسول صلى الله عليه وسلم ليس بدعا فى الرسل فيما أباح له من الزوجات والسرارى فقال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل) أى إن الله سن بك أيها الرسول سنة أسلافك من الأنبياء الذين مضوا من قبل فيما أباح لهم من الزوجات والسرارى ، فقد كان لسليمان وداود وغيرهما عدد كثير منهن .

وفى هذا ردّ على اليهود الذين عابوه صلى الله عليه وسلم (وحاشاه) بكثرة الأزواج.

(وكان أمر الله قدرا مقدورا) أى وكان أمر الله الذى يقدره كائنا لامحالة وواقعا لامحيد عنه ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن .

ثم وصف الذين خلوا بصفات الكمال والتقوى وإخلاص العبادة له وتبليغ رسالته فقال :

(الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله) أى هؤلاء الذين جعل محمد متبعا سنتهم وسالكا سبيلهم هم الذين يبلغون رسالات ربهم إلى من أرسلوا إليهم ويخافون الله فى تركهم تبليغ ذلك ولا يخافون سواه .

والخلاصة — كن من أولئك الرسل الكرام ولا تخش أحدا غير ربك فإنه يحميك ممن يريدك بسوء أو يمسك بأذى .

(وكفى بالله حسيبا) أى وكفى الله ناصرا ومعينا وحافظا لأعمال عباده ومحاسبا لهم عليها .

ولما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب قالوا تزوج حليلة ابنه فأنزل الله :

(ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين) أى ما كان لك أن تخشى أحدا من الناس بزواج امرأة متبناك لا ابنك ، فإنك لست أبا لأحد من الناس ، ولكنك رسول الله فى تبليغ رسالته إلى الخلق ، فأنت أب لكل فرد فى الأمة فيما يرجع إلى التوقير والتعظيم ووجوب الشفقة عليهم كما هو دأب كل رسول مع أمته .

وخلاصة ذلك — ليس محمد بأب لأحد منكم أبوة شرعية يترتب عليها حرمة المصاهرة ونحوها ، ولكنه أب المؤمنين جميعا فى يجب عليهم من توقيره وإجلاله وتعظيمه ؛ كما أن عليه أن يشفق عليهم ويحرص على ما فيه خيرهم وفائدتهم فى المعاش والمعاد وما فيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة .

أولاد النبي صلى الله عليه وسلم

ولد للنبي صلى الله عليه وسلم من خديجة ثلاثة ذكور: القاسم والطيب والطاهر، وماتوا صغارا لم يبلغ أحد منهم الحلم . وولد له إبراهيم من مارية القبطية ومات رضيعا ، وولد له من خديجة أربع بنات : زينب ورُقيّة وأم كلثوم وفاطمة ، وقد مات الثلاث الأول فى حياته صلى الله عليه وسلم . وماتت فاطمة بعد أن قبض صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى بستة شهور .

(وكان الله بكل شىء عليما) فيعلم من هو الأجدر بالبدء به من الأنبياء ، ومن هو الأحق بأن يكون خاتمهم ، ويعلم المصالح فى ذلك .

ونحو الآية قوله : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (٤١) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (٤٢) هُوَ الَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلاَئِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيماً (٤٣) تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلاَمٌ وَأَعَدَّ لَهُمْ أَجْرًا كَرِيمًا (٤٤)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر ما ينبغى أن يكون عليه النبي صلى الله عليه وسلم مع ربه من تقواه وإخلاصه له فى السر والعلن ، وما ينبغى أن يكون عليه مع أهله وأقاربه من راحتهم وإيثارهم على نفسه فيما يطلبون كما يومىء إلى ذلك قوله : (يأيها النبى قل لأزواجك) الخ ، أرشد عباده إلى تعظيمه تعالى وإجلاله بذكره والتسبيح له بكرة وأصيلا ، فهو الذى يرحمهم وملائكته يستغفرون لهم كى يخرجهم من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان وكان بعباده المؤمنين رحيما .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا) أى أيها الذين صدقوا الله ورسوله اذكروا الله بقلوبكم وألسنتكم وجوارحكم ذكرا كثيرا فى جميع أحوالكم جهد الطاقة لأنه المنعم عليكم بأنواع النعم وصنوف المنن .

(وسبحوه بكرة وأصيلا) أى ونزهوه عما لايليق به طرفى النهار ، لأن وقت البكرة وقت القيام من النوم وهو يعدّ كأنه حياة جديدة بعد موت ، ووقت الأصيل وقت الانتهاء من العمل اليومى ، فيكون الذكر شكرا له على توفيقه لأداء أعمال الدنيا والقيام بالسعى على الأرزاق الدنيوية فلم يبق إلا السعى إلى ما يقرب إلى الله بعمل الآخرة .

ثم ذكر السبب فى هذا الذكر والتسبيح فقال :

(هو الذى يصلى عليكم وملائكته) أى إن ربكم الذى تذكرونه الذكر الكثير وتسبحونه بكرة وأصيلا — هو الذى يرحمكم ويثنى عليكم فى الملإ من عباده وتستغفر لكم ملائكته .

وفى هذا من التحريض على ذكره والتسبيح له ما لايخفى .

(ليخرجكم من الظلمات إلى النور) أى إنه برحمته وهدايته ودعاء الملائكة لكم — أخرجكم من ظلمة الكفر إلى نور الإيمان ،

(وكان بالمؤمنين رحيما) فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فانه هداهم إلى الحق الذى جهله غيرهم ، وبصّرهم الطريق الذى حاد عنه سواهم من الدعاة إلى الكفر ، وأما فى الآخرة فإنه آمنهم من الفزع الأكبر وأمر الملائكة أن يتلقوهم بالبشارة بالفوز بالجنة والنجاة من النار ، وهذا ما أشار إليه بقوله :

(تحيتهم يوم يلقونه سلام) أى تحييهم الملائكة بذلك إذا دخلوا الجنة ؛ كما قال تعالى : «وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ . سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ » .

(وأعدّ لهم أجرا كريما) أى وهيأ لهم ثوابا حسنا فى الآخرة يأتيهم بلا طلب بما يتمتعون به من لذات المآكل والمشارب والملابس والمساكن فى فسيح الجنات مما لاعين رأت ، ولاأذن سمعت ، ولاخطر على قلب بشر .

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلاَ تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلاً (٤٨)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر تأديبه لنبيه فى ابتداء السورة ، وذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع أهله ــ ذكر ما ينبغى أن يكون عليه مع الخلق كافة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ومبشرا ونذيرا) أى يأيها الرسول إنا بعثناك شاهدا على من بعثت إليهم تراقب أحوالهم ، وترى أعمالهم ، وتتحمل الشهادة بما صدر منهم من تصديق وتكذيب ، وسائر مايفعلون من الهدى والضلال ، وتؤدّى ذلك يوم القيامة ، وأرسلناك مبشرا لهم بالجنة من صدّقوك ، وعملوا بما جئتهم به من عند ربك ، ومنذرا لهم بالنار يدخلونها فيعذبون فيها إن هم كذبوك وخالفوا ما أمرتهم به ونهيتهم عنه .

(وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا) أى وداعيا الخلق إلى الإقرار بوحدانيته تعالى ، وسائر مايجب له من صفات الكمال ، وإلى عبادته ، ومراقبته فى السر والعلن ــ

وسراجا منيرا يستضىء بك الضالون فى ظلمات الجهل والغواية ، و يقتبس من نورك المهتدون ، فيسلكون مناهج الرشد والسعادة .

(وبشر المؤمنين بأن لهم من الله فضلا كبيرا) أى وراقب أحوال أمتك ، و بشر المؤمنين بأن لهم فضلا كبيرا على سائر الأمم ، فإنهم سيغيّرون نظم المجتمع من ظلم وجور إلى عدل وصلاح ، و يدخلون الأمم المتعثرة فى أثواب الضلال فى زمرة الأمم التى عليها صلاح البشر فى مستأنف الزمان .

أخرج ابن جرير وعكرمة عن الحسن أنه قال : لما نزل قوله : « لِيَغْفِرَ لَكَ اللّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ » قالوا : يا رسول الله قد علمنا ما يفعل بك فماذا يفعل بنا ؟ فأنزل الله : « وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللّهِ فَضْلاً كَبِيرًا » .

ولما أمره الله بما يسرّ نهاه عما يضر ، فقال :

(ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) أى ولا تطع قول كافر ولا منافق فى أمر الدعوة ، ولن الجانب فى التبليغ ، وارفق فى الإنذار ، واصفح عن أذاهم ، واصبر على ماينالك منهم ، وفوض أمورك إلى الله ، وثق به فإنه كافيك جميع مَن دونك ، حتى يأتيك أمره وقضاؤه ، وهو حسبك فى جميع أمورك ، وكالئك وراعيك .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَكَحْتُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلاً (٤٩)

شرح المفردات

النكاح هنا : العقد ، والمسّ معروف : والمراد به قربان المرأة ، ومن أدب القرآن الكريم التعبير عنه بالملامسة والمماسة ، والقربان والتفشى والإتيان ، والعدّة : الشىء

المعدود ، وعدّة المرأة : الأيام التى بانقضائها يحل بها التزوج ، فمتعوهن : أى أعطوهن المتعة ، وهى قميص وخمار (ماتغطى به المرأة رأسها) وملحفة (ماتلتحف به من قرنها إلى قدمها ـ ملاية) سرحوهن : أى أخرجوهن من منازلكم ، سراحا جميلا : أى إخراجا مشتملا على اين الكلام خاليا من الأذى .

المعنى الجملى

أدّب الله نبيه بمكارم الأخلاق بقوله : يأيها النبى اتق الله ، وثنى بتذكيره بحسن معاملة أزواجه بقوله : يأيها النبى قل لأزواجك ، وثلث بذكر معاملته لأمته بقوله : يأيها النبى إنا أرسلناك شاهدا ، وكان كلما ذكر للنبى مكرمة ، وعلمه أدبا ذكر للمؤمنين ما يناسبه ، فأرشد المؤمنين فيما يتعلق بجانبه بقوله : يأيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرا كثيرا ، وفيما يتعلق بما تحت أيديهم من الزوجات بقوله : يأيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ، وفيما يتعلق بمعاملتهم لنبيهم فقال: لاتدخلوا بيوت النبى الخ، وقال: يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما .

الإيضاح

أى يأيها الذين آمنوا إذا عقدتم على المؤمنات وتزوجتموهن ثم طلقتموهن من قبل المسيس ، فلا عدّة لكم عليهن بأيام يتربصن بها تستوفون عددها ، ولكن اكسوهن كسوة تليق بحالهن إذا خرجن وانتقلن من بيت إلى آخر ، ويختلف ذلك باختلاف البيئة والبلد الذى تعيش فيه المرأة ، وأخرجوهن إخراجا جميلا ، فهيئوا لهن من المركب والزاد وجميل المعاملة ماتقرّ به أعينهن ويسرّ به أهلوهن ؛ ليكون فى ذلك بعض السلوة مما لحقها من أذى بقطع العشرة التى كانت تنتظر دوامها ، وبخروج من بيت كانت ترجو أن يكون هو المقام إلى أن تلاقى ربها ، أو يموت بعلها .

روى البخارى عن سهل بن سعد وأبى أسيد رضى الله عنهما قالا : « إن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج أميمة بنت شراحيل ، فلما أن دخلت عليه صلى الله عليه

وسلم بسط يده إليها فكأنها كرهت ذلك ، فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين رازقيين (ضرب من الثياب مشهور فى ذلك الحين) .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْكَ ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالَاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ، قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٥٠)

شرح المفردات

الأجور هنا : المهور ، وما ملكت يمينك : أى ما أخذته من المغانم ، خالصة لك : أى هى خاصة بك ، حرج : أى ضيق ومشقة .

الإيضاح

(يأيها النبى إنا أحللنا لك أزواجك اللاتى آتيت أجورهن) أى يأيها النبى إنا أحللنا لك الأزواج اللاتى أعطيتهن مهورهن ، وقد كان مهره عليه السلام لنسائه اثنتى عشرة أوقية ونصفا أى خمسمائة درهم إلا أم حبيبة بنت أبى سفيان فإنه أمهرها عنه النجاشى رحمه الله أربعمائة دينار .

(وما ملكت يمينك مما أفاء الله عليك) أى وأحللنا لك الإماء اللواتى سبيتهن فملكتهن بالسباء ، وصرن لك من الفىء بفتح الله عليك ، وقد ملك صفية بنت حيى ابن أخطب فى سبى خيبر ، ثم أعتقها ، وجعل صداقها عتقها ، وجُوَيْرِيَة بنت الحرث

من بنى المصطلق أعتقها ، ثم تزوجها ، وملك ريحانة بنت شمعون النضرية ، ومارية أم إبراهيم ، وكانتا من السرارى .

(وبنات عمك وبنات عماتك وبنات خالك وبنات خالاتك اللاتى هاجرن معك) أى وأحللنا لك بنات عمك وبنات عماتك ، وبنات خالك وبنات خالاتك المهاجرات معك دون من لم يهاجرن .

روى السُّدّى عن أبى صالح عن أم هانئ قالت : « خطبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتذرت إليه ، فعذرنى ؛ ثم أنزل الله تعالى : (إنا أحللنا لك أزواجك ـ إلى قوله ـ اللاتى هاجرن معك) قالت : فلم أكن أحل له ، ولم أكن ممن هاجر معه ، كنت من الطلقاء » .

(وامرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد النبى أن يستنكحها خالصة لك من دون المؤمنين) أى وأحللنا لك التمتع بالمرأة المؤمنة التى تهب نفسها لك بلا مهر إن أردت ذلك .

وهذه الإباحة خاصة لك من دون المؤمنين ، فلو وهبت امرأة نفسها لرجل وجب عليه لها مهر مثلها ، كما حكم بذلك رسول الله فى بَرْوَع بنت واشق لما فوضت نفسها ومات عنها زوجها فحكم لها بصداق مثلها .

والموت والدخول سواء فى تقرير مهر المثل ، وثبوت مهر المثل فى المفوِّضة لغير النبى صلى الله عليه وسلم ، فأما هو فلا يجب عليه للمفوِّضة شىء لو دخل بها ، لأن له أن يتزوج بغير صداق ولا ولىّ ولاشهود ، كما فى قصة زينب بنت جحش رضى الله عنها .

(قد علمنا ما فرضنا عليهم فى أزواجهم وما ملكت أيمانهم) أى قد علم الله ما ينبغى فرضه على المؤمنين فى أزواجهم من شروط العقد ، وأنه لاتحل لهم امرأة بلفظ الهبة ، وبدون شهود ، وفى الإماء بشراء أو غيره أن تكون ممن تحل لمالكها كالكتابية بخلاف الوثنية والمجوسية ـ وهذه الجملة معترضة بين ماسلف وما سيأتى :

ثم ذكر العلة فى اختصاصه عليه الصلاة والسلام بما تقدم من الأحكام بقوله :

(لكيلا يكون عليك حرج) أى أحللنا لك ذلك حتى لا يكون حرج وضيق فى نكاح من نكحت من الأصناف السالفة .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان ربك غفورا لك ، ولأهل الإيمان بك ، رحيما بك وبهم أن يعاقبهم على سالف ذنب صدر منهم بعد توبتهم .

تُرْجِى مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِى إِلَيْكَ مَنْ تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكَ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلَا يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيماً حَلِيما (٥١)

شرح المفردات

ترجى : أى تؤخر من الإرجاء وهو التأخير ، وقرئ ترجئ ، وتؤوى : أى تضم وتضاجع ، ابتغيت : أى طلبت . عزلت : أى تجنبت ، أدنى : أى أقرب ، تقرُّ : أى تسرُّ .

الإيضاح

(ترجى من تشاء منهن وتؤوى إليك من تشاء) أى تؤخر مضاجعة من تشاء من نسائك ، وتضاجع من تشاء ، ولا يجب عليك قَسْم بينهن ، بل الأمر فى ذلك إليك ، على أنه كان يقسم بينهن .

(ومن ابتغيت ممن عزلت فلا جناح عليك) أى ومن دعوت إلى فراشك ، وطلبت صحبتها ممن عزلت عن نفسك بالطلاق ، فلا ضيق عليك فى ذلك .

والخلاصة : إنه لا ضير عليه إذا أراد إرجاع من طلقها من قبل .

روى ابن جرير عن أبى رَزِين قال : « لما نزلت آية التخيير أشفقن أن يطلقهن، فقلن : يا رسول الله اجعل لنا من مالك ، ومن نفسك ما شئت ، ودعنا كما نحن ؛ فنزلت هذه الآية ، فأرجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بعضهن ، وآوى إليه بعضهن وكان ممن آوى إليه عائشة وحفصة وزينب وأم سلمة ، وكان يقسم بينهن سواء ، وأرجأ منهن خمسا : أم حبيبة وميمونة ، وسودة وصفية وجويرية ، فكان لا يقسم بينهن ما شاء » .

ثم بين السبب فى الإيواء والإرجاء ، وأنه كان ذلك فى مصلحتهن ، فقال :

(ذلك أدنى أن تقرّ أعينهن ولا يحزنّ ويرضين بما آتيتهن كلهن) أى إنهن إذا علمن أن الله قد وضع عنك الحرج فى القَسْم ، فإن شئتَ قسمتَ ، وإن شئت لم تقسم ، لا جناح عليك فى أىّ ذلك فعلت ، وأنت مع هذا تقسم لهن اختيارا منك لا وجوبا عليك — فرحن بذلك ، واستبشرن به ، واعترفن بمنتك عليهن فى قسمك لهن ، وتسويتك بينهن ، وإنصافك لهن ، وعدلك بينهن .

(والله يعلم ما فى قلوبكم) من الميل إلى بعضهن دون بعض مما لا يمكن دفعه ، ومن الرضا بما دبر الله فى حقهن من تفويض الأمر إليه صلى الله عليه وسلم .

روى أحمد عن عبد الله بن يزيد عن عائشة قالت : « كان رسول الله يقسم بين نسائه فيعدل، ثم يقول : « اللهم هذا فعلى فيما أملك ، فلا تلمنى فيما تملك ولا أملك » يعنى القلب ، وزيادة الحب لبعض دون بعض .

وفى هذا حث على تحسين ما فى القلوب ، ووعيد لمن لم يرض منهن بما دبَّر الله من ذلك ، وفوّضه إلى مشيئته ، وبَعْث على تواطؤ قلوبهن ، والتصافى بينهن ، والتوافق على رضا رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(وكان الله عليما حليما) أى وكان الله عليما بالسرائر ، حليما فلا يعاجل أهل الذنوب بالعقوبة ، ليتوب منهم من شاء له أن يتوب ، وينيب من ذنوبه من ينيب .

لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ، وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَقِيباً (٥٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أنه لم يوجب على نبيه القَسْم لنسائه وأمره بتخييرهن فاخترن الله ورسوله — أردف ذلك بذكر ما جازاهم به من تحريم غيرهن عليه ومنعه من طلاقهن بقوله : (ولا أن تبدّل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن .)

الإيضاح

تتضمن الآية الكريمة حكمين : ألا يتزوج عليه السلام غيرهن ، ولا أن يستبدل بهن غيرهن ، و إلى ذلك أشار بقوله :

(١) (لايحل لك النساء من بعد) أى لايحل لك النساء من بعد هؤلاء التسع اللاتى فى عصمتك اليوم كفاء اختيارهن الله ورسوله وحسن صنيعهن فى ذلك .

أخرج أبو داود فى ناسخه وابن مردويه والبيهقى فى سننه عن أنس قال : « لما خيرهن فاخترن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم قصره سبحانه عليهن » .

وروى عن ابن عباس أنه قال فى الآية : (حبسه الله تعالى عليهن كما حبسهنّ عليه).

(٢) (ولا أن تبدل بهن من أزواج ولو أعجبك حسنهن إلا ما ملكت يمينك) أى ولا يحل لك أن تستبدل بهن أزواجا غيرهن بأن تطلق واحدة منهن وتنكح بدلها أخرى مهما كانت بارعة فى الحسب والجمال إلا ما ملكت يمينك منهن ، وقد ملك بعدهن مارية القبطية أهداها له المقوقس فتسرّاها وأولدها إبراهيم ومات رضيعا.

وفى الآية دليل على جواز النظر إلى من يريد زواجها ، وقد روى أبو داود أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إذا خطب أحدكم المرأة ، فإن استطاع أن ينظر إلى ما يدعوه إلى نكاحها فليفعل » وعن المغيرة بن شعبة قال : «خطبت امرأة فقال لى النبى

صلى الله عليه وسلم : هل نظرت إليها ؟ قلت لا . قال : انظر إليها فإنه أحرى أن يؤدم بينكما » .

(وكان الله على كل شىء رقيبا) أي وكان الله حافظا ومطلعا على كل شىء ، عليما بالسر والنجوى ، فاحذروا تجاوز حدوده وتخطى حلاله إلى حرامه .

آية الحجاب وما فيها من أحكام وآداب

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللهُ لاَ يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللهِ وَلاَ أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً (٥٣) إِنْ تُبْدُوا شَيْئًا أَوْ تُخْفُوهُ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (٥٤) .

شرح المفردات

إناه : أي نضجه : يقال أنى الطعامُ يأنى أنًى : أي أدرك وفرغ ، وفيه لغات : إنى بكسر الهمزة وأنى بفتحها مقصورا وممدودا قال الحطيئة :

وآخرتِ العَشاء إلى سُهَيْلٍ   أو الشِّعْرى فطال بى الأَناء

فانتشروا : أي فتفرقوا ولا تلبثوا ، مستأنسين لحديث : أي مستمعين له ، متاعا :

أى شيئا تمتعون به من ماعون وغيره ، أطهر لقلوبكم : أى أكثر تطهرا من الخواطر الشيطانية التى تخطر للرجال فى أمر النساء وللنساء فى شأن الرجال .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال النبى صلى الله عليه وسلم مع أمته بقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِىُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا » أردف ذلك ببيان حال المؤمنين مع النبى صلى الله عليه وسلم ؛ إرشادا لما يجب عليهم نحوه من الاحترام والتعظيم فى خلوته وفى الملإ ، فأبان أنه يجب عدم إزعاجه إذا كان فى الخلوة بقوله : « لَاتَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِىِّ » الخ . وأنه يجب إجلاله إذا كان فى الملإ بقوله : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » .

روى أن هذه الآية نزلت يوم تزوج النبى صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش ؛ فقد أخرج أحمد والبخارى ومسلم وابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن أنس قال : « لما تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم زينب بنت جحش دعا القوم فطَعِمُوا ثم جلسوا يتحدثون وإذا هو كأنه يتهيأ للقيام فلم يقوموا ، فلما رأى ذلك قام ، فلما قام قام من قام وقعد ثلاثة نفر فجاء النبى صلى الله عليه وسلم ليدخل فإذا القوم جلوس ، ثم إنهم قاموا فانطلقت فأخبرت النبى صلى الله عليه وسلم أنهم قد انطلقوا فجاء حتى دخل فذهبت أدخل فألقى الحجاب بينى وبينه فأنزل الله : (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى) الآية .

الإيضاح

أدب الله عباده بآداب ينبغى أن يتخلقوا بها لما فيها من الحكم الاجتماعية والمزايا العمرانية فقال :

(١) (يأيها الذين آمنوا لاتدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير

ناظرين إناه) أى أيها الذين آمنوا بالله ورسوله: لاتدخلوا بيوت نبى الله إلا أن تُدْعوا إلى طعام تطعمونه غير منتظرين إدراكه ونضجه .

وخلاصة ذلك — إنكم إذا دعيتم إلى وليمة فى بيت النبى صلى الله عليه وسلم فلا تدخلوا البيت إلا إذا علمتم أن الطعام قد تم نضجه وانتهى إعداده ، إذ قبل ذلك يكون أهل البيت فى شغل عنكم ، وقد يلبسن ثياب البِذْلة والعمل فلا يحسن أن تروهنّ وهنّ على هذه الحال ، إلى أنه ربما بدا من إحداهن ما لايحل النظر إليه .

(٢) (ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث) أى ولكن إذا دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم فادخلوا البيت الذى أذن لكم بدخوله ، فإذا أكلتم الطعام الذى دعيتم إلى أكله فتفرقوا واخرجوا من منزله ولا تمكثوا فى البيت لتتبادلوا ألوان الحديث وفنونه المختلفة .

أخرج عبد بن حميد عن الربيع عن أنس قال : كانوا يتحينون فيدخلون بيت النبى صلى الله عليه وسلم فيجلسون فيتحدثون ليدرك الطعام فأنزل الله (يأيها الذين آمنوا) الآية .

وأخرج ابن أبى حاتم عن سليمان بن أرقم قال : نزلت هذه فى الثقلاء ومن ثم قيل هى آية الثقلاء .

ثم علل ذلك بقوله :

(إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحيي منكم والله لايستحيي من الحق) أى إن ذلك اللُّبْث والاستئناس والدخول على هذا الوجه كان يؤذى النبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان يمنعه من قضاء بعض حاجه ، إلى ما فيه من تضييق المنزل على أهله ، لكنه كان يستحيي من إخراجكم ومنعكم مما يؤذيه ، والله لم يترك الحق وأمركم بالخروج .

وفى هذا إيماء إلى أن اللبث يحرم على المدعو إلى طعام بعد أن يَطْعَم إذا كان فى ذلك أذى لرب البيت ، ولو كان البيت غير بيت النبى صلى الله عليه وسلم فالتثقيل مذموم فى كل مكان ، محتقر لدى كل إنسان .

وعن عائشة وابن عباس رضى الله عنهما « حسبك فى الثقلاء أن الله عز وجل لم يحتملهم »

وعلى الجملة فللدعوة إلى المآدب نظم وآداب خاصة أفردت بالتأليف ولا سيما فى العصر الحديث .

وجعلوا التحلل منها وترك اتباعها مما لا تسامح فيه .

(٣) (وإذا سألتموهن متاعا فاسألوهن من وراء حجاب) أى وإذا سألتم أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم ونساء المؤمنين اللواتى لسن لكم بأزواج ، شيئا تتمتعون به من ماعون وغيره فاطلبوا منهن ذلك من وراء ستر بينكم وبينهن .

أخرج البخارى وابن جرير وابن مردويه عن أنس رضى الله عنه قال : قال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب فى صبيحة عُرْس رسول الله صلى الله عليه وسلم بزينب بنت جحش فى ذى القعدة سنة خمس من الهجرة ، وهى مما وافق تنزيلها قول عمر كما فى الصحيحين عنه قال : وافقت ربى عز وجل فى ثلاث ، قلت : يا رسول الله لو اتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، فأنزل الله : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » وقلت: يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو حجبتهن فأنزل الله آية الحجاب ، وقلت لأزواج النبى صلى الله عليه وسلم لما تمالأن عليه فى الغيرة « عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ » فنزلت كذلك .

ثم بين سبب ما تقدم بقوله :

(ذلكم أطهر لقلوبكم وقلوبهن) أى ذلك الدخول بالإذن وعدم الاستئناس للأحاديث أطهر لقلوبكم وقلوبهن من وساوس الشيطان والريب ، لأن العين رسول القلب ، فإذا لم تر العين لم يشته القلب ، فالقلب عند عدم الرؤية أطهر وعدم الفتنة

حينئذ أظهر ، وجاء فى الأثر « النظر سهم مسموم من سهام إبليس » وقال الشاعر :

والمرء ما دام ذاعين يقلبها فى أعين العِين موقوف على الخَطَر
يسر مُقْلَتَهُ ما ساء مُهْجَته لا مرحبا بانتفاع جاء بالضرر

ولما ذكر ما ينبغى من الآداب حين دخول بيت الرسول أكده بما يحملهم على ملاطفته وحسن معاملته بقوله :

(وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله) أى وما كان ينبغى لكم أن تفعلوا فى حياته صلى الله عليه وسلم فعلا يتأذى به ويكرهه كاللبث والاستئناس بالحديث الذى كنتم تفعلونه ، فإن الرسول يسعى لخيركم ومنفعتكم فى دنياكم وآخرتكم ، فعلينا أن نقابله بالحسنى كِفاء جليل أعماله .

ولما كان صلى الله عليه وسلم قد قُصر عليهن قصرهن الله عليه بقوله .

(ولا تنكحوا أزواجه من بعده أبدا) أى ولا تنكحوا أزواجه أبدا من بعد مفارقتهن بموت أو طلاق ، زيادة فى شرفه ، وإظهارا لعظمته وجلاله ، ولأنهن أمهات المؤمنين ، والمرء لايتزوج أمه .

ثم بين السبب فيما تقدم بقوله :

(إن ذلكم كان عند الله عظيما) أى إن ذلك الإيذاء وزواج نسائه من بعده أمر عظيم وخطب جلل لايقدر قدره غير الله تعالى .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد على هذا العمل — إلى ما فيه من تعظيم شأن الرسول وإيجاب حرمته حيا وميتا .

ثم بالغ فى الوعيد وزاد فى التهديد بقوله :

(إن تبدوا شيئا أو تخفوه فإن الله كان بكل شىء عليما) أى إن ما تكنّه ضمائركم وتنطوى عليه سرائركم فالله يعلمه إذ لا تخفى عليه خافية « يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ » ثم يجازيكم بما صدر منكم من المعاصى البادية والخافية ، والكلام وإن كان عاما بظاهره فالمقصود ما يتعلق بزوجاته عليه السلام .

وسبب نزول الآية أنه لما نزلت آية الحجاب قال رجل : أَنُنْهَى أن نكلم بنات أعمامنا إلا من وراء حجاب ؟ لئن مات محمد لنتزوجنّ نساءه .

وأخرج جويبر عن ابن عباس « أن رجلا أتى بعض أزواج النبي فكلمها وهو ابن عمها ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم : لاتقومَنَّ هذا المقام بعد يومكَ هذا ، فقال يا رسول الله إنها ابنة عمى، والله ماقلت منكرا ولا قالت لى ، قال النبي صلى الله عليه وسلم: قد عرفت ذلك : إنه ليس أحد أغير من الله تعالى ، و إنه ليس أحد أغير منى ، فمضى ثم قال ما يمنعنى من كلام ابنة عمى ؟ لأتزوجنها من بعده ، فأنزل الله الآية ، فأعتق الرجل رقبة ، وحمل على عشرة أبعرة فى سبيل الله ، وحج ماشيا لأجل كلمته » . وروى أن بعض المنافقين قال حين تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم م سلمة بعد أبى سلمة وحفصة بعد خنيس بن حذافة : ما بال محمد يتزوج نساءنا ؟ والله لو قد مات لأجلنا السهام على نسائه فنزلت

لَا جُنَاحَ عَلَيْهِنَّ فِي آبَائِهِنَّ وَلَا أَبْنَائِهِنَّ وَلَا إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ إِخْوَانِهِنَّ وَلَا أَبْنَاءِ أَخَوَاتِهِنَّ وَلَا نِسَائِهِنَّ وَلَا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُنَّ وَاتَّقِينَ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن نساء النبي لا يكلَّمن إلا من وراء حجاب — أردف ذلك باستثناء بعض الأقارب ونساء المؤمنين والأرقاء ، لما فى الاحتجاب عن هؤلاء من عظيم المشقة ، للحاجة إلى الاختلاط بهؤلاء كثيرا .

روى أنه لما نزلت آية الحجاب قال الآباء والأبناء والأقارب : أو نحن يارسول الله نكلمهنّ من وراء حجاب ؟ فنزلت .

الإيضاح

لا إثم على أزواج النبى صلى الله عليه وسلم فى ترك الحجاب حين دخول آبائهن ، سواء أكان الأب أبا من النسب أم من الرضاع أو أبنائهن نسبا أو رضاعا ، أو إخوانهن أو بنى إخوانهن أو أبناء إخوانهن أو أبناء أخواتهن ، أو النساء المسلمات القربى منهن والبعدى ، أو ما ملكت أيمانهن من العبيد لما فى الاحتجاب عنهن من المشقة ، لأنهم يقومون بالخدمة عليهن .

واخشين الله فى السر والعلن فإنه شهيد على كل شىء لا تخفى عليه خافية ، وهو يجازى على العمل خيرا أو شرا .

والخلاصة — إن الله شاهد عليكم عند اختلاء بعضكم ببعض ، فخلوتكم مثل ملئكم فاتقوه فيما تأتون وما تذرون .

إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً (٥٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر وجوب احترام النبى حال خلوته بقوله : « لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ » أردف ذلك بوجوب احترامه فى الملإ الأعلى بقوله : « إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ » وفى الملإ الأدنى بقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

الإيضاح

(إن الله وملائكته يصلون على النبى) الصلاة من الله الرحمة ومن الملائكة الاستغفار ؛ فالمعنى كما قال ابن عباس : إن الله يرحم النبى والملائكة يدعون له ويطلبون له المغفرة .

وقد أخبر الله سبحانه عباده بمنزلة عبده ونبيه فى الملإ الأعلى بأنه يثنى عليه لدى ملائكته المقربين ، وأن ملائكته تصلى عليه طالبين له مغفرة من الله .

وقد أمرنا بأن نصلى عليه بقوله :

(يأيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) أى يأيها الذين آمنوا ادعوا له بالرحمة وأظهروا شرفه بكل ما تصل إليه قدرتكم من حسن متابعته والانقياد لأمره فى كل ما يأمر به ، والصلاة والسلام عليه بألسنتكم .

روى البخارى بسنده عن كعب بن عَجْرَة قال : « قيل يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفنا ، فكيف الصلاة ؟ قال : قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد ، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم ، إنك حميد مجيد) .

روى عبدالله بن أبى طلحة عن أبيه « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء ذات يوم والبشرى تُرى فى وجهه ، فقلنا إنا لنرى البشرى فى وجهك ، فقال : جاءنى جبريل فقال : يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول أما يرضيك أن لا يصلى عليك أحد من أمتك إلا صليتُ عليه عشرا ولا يسلم عليك أحد من أمتك إلا سلمت عليه عشرا » .

إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا (٥٧) وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا (٥٨) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه باحترام نبيّه فى بيته وفى الملإ — نهى عن إيذاء الله بمخالفة أوامره وارتكاب زواجره ، وإيذاء رسوله بإلصاق عيب أو نقص به .

الإيضاح

(إن الذين يؤذون الله) فيرتكبون ما حرمه من الكفر وسائر أنواع المعاصى ، ومنهم اليهود الذين قالوا «يَدُ اللهِ مَغْلُولَةٌ» والنصارى الذين قالوا «الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ» والمشركون الذين قالوا : الملائكة بنات الله والأصنام شركاؤه ، تعالى عن ذلك علوًّا كبيراً .

(ورسوله) كالذين قالوا هو شاعر كاهن مجنون إلى نحو ذلك من مقالاتهم ، فمن آذاه فقد آذى الله ، ومن أطاعه فقد أطاع الله .

(لعنهم الله فى الدنيا والآخرة) أى طردهم من رحمته وأبعدهم من فضله فى الدنيا ، فجعلهم يتمادون فى غيهم ، ويدسّون أنفسهم ويستمرئون سبل الغواية والضلالة التى ترديهم فى النار وبئس القرار ، وفى الآخرة حيث يصلون نارا تشوى الوجوه .

(وأعد لهم عذابا مهينا) أى وهيأ لهم عذابا يؤلمهم ويجعلهم فى مقام الزراية والاحتقار ، والخزى والهوان .

ولما كان من أعظم أذى رسوله أذى من تابعه ، بين ذلك بقوله :

وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا .

شرح المفردات

بغير ما اكتسبوا : أى بغير جناية يستحقون بها الأذى ، والبهتان : الكذب الذى يبهت الشخص لفظاعته ، وإثما مبينا : أى ذنبا واضحا بينا .

الإيضاح

أى إن الذين ينسبون إلى المؤمنين والمؤمنات مالم يعملوه وماهم منه براء ، اجترحوا كذبا فظيعا ، وأتوا أمرا إدًّا ، وذنبا ظاهرا ليس له ما يسوّغه أو يقوم مقام العذر له .

روى الضحاك عن ابن عباس قال : أنزلت فى عبد الله بن أبىّ وناس معه قذفوا عائشة رضى الله عنها ؛ فخطب النبي صلى الله عليه وسلم وقال : «من يعذرنى من رجل يؤذينى ويجمع فى بيته من يؤذينى؟».

وروى أبو هريرة «أنه قيل يا رسول الله ماالغيبة ؟ قال ذكرك أخاك بما يكره ، قيل أرأيت إن كان فى أخى ما أقول ؟ قال : إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهتّه » .

وروى عن عائشة أنها قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه : «أىّ الربا أربى عند الله ؟ قالوا الله ورسوله أعلم ، قال أربى الربا عند الله استحلال عرض امرئ مسلم ، ثم قرأ (والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتاناً وإثماً مبيناً) » .

يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيماً (٥٩) لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلاً (٦٠) مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً (٦١) سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (٦٢)

شرح المفردات

الجلابيب : واحدها جلباب وهى الملاءة التى تشتمل بها المرأة فوق الدرع والخمار ، يدنين : أى يرخين ويسدلن ؛ يقال للمرأة إذا زل الثوب عن وجهها أدنى ثوبك على وجهك ، أدنى : أى أقرب ، أن يعرفن : أى يميزن عن الإساءة ، مرض : أى ضعف

إيمان بأنها كهم حرمات الدين ، والمرجفون : هم اليهود الذين كانوا يلفقون أخبار السوء وينشرونها عن سرايا المسلمين وجندهم ، وهو من الإرجاف وهو الزلزلة ؛ وصفت بها الأخبار الكاذبة لكونها مزلزلة غير ثابتة ، لنغرينك بهم : أى لنسلطنك عليهم ولنحرشنك بهم ، ملعونين : أى مبعدين من رحمة الله ، ثقفوا : أى وجدوا ، خلوا : أى مضوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من يؤذى مؤمنا فقد احتمل بهتانا وإثما مبينا ، زجرا لهم عن الإيذاء — أمر النبي صلى الله عليه وسلم بأن يأمر بعض المتأذين منهم بما يدفع إيذاءهم فى الجملة من التستر والتميز بالزى واللباس حتى يبتعدوا عن الأذى بقدر المستطاع.

روى أنه لما كانت الحرائر والإماء فى المدينة يخرجن ليلا لقضاء الحاجة فى الغيطان وبين النخيل بلا فارق بين الحرائر والإماء ، وكان فى المدينة فساق يتعرضون للإماء وربما تعرضوا للحرائر ، فإذا كُلِّموا فى ذلك قالوا حسبناهن إماء — أمر الحرائر أن يخالفن الإماء فى الزى والتستر ليتمايزن ويُهبن فلا يطمع فيهن طامع .

الإيضاح

(يأيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيبهن) طلب الله من نبيه صلى الله عليه وسلم أن يأمر النساء المؤمنات المسلمات وبخاصة أزواجه وبناته بأن يسدلن عليهن الجلابيب إذا خرجن من بيوتهن ليتميزن عن الإماء.

روى على بن طلحة عن ابن عباس قال : أمر الله نساء المؤمنين إذا خرجن من بيوتهن فى حاجة أن يغطين وجوههن من فوق رءوسهن بالجلابيب ويبدين عينا واحدة .

وعن أم سلمة قالت : لما نزلت هذه الآية (يدنين عليهن من جلابيبهن) خرج نساء الأنصار كأن رءوسهن الغربان من السكينة وعليهن أكسية سود يلبسنها .

و إجمال ذلك — إن على المسلمة إذا خرجت من بيتها لحاجة أن تسدل عليها ملابسها بحيث تغطى الجسم والرأس ولا تبدى شيئا من مواضع الفتنة كالرأس والصدر والذراعين ونحوها .

ثم علل ذلك بقوله :

(ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين) أى ذلك التستر أقرب لمعرفتهن بالعفة فلا يُتَعَرَّض لهن ولا يَلْقَيْن مكروها من أهل الريبة احتراما لهن منهم ، فإن المتبرجة مطموع فيها منظور إليها نظرة سخرية واستهزاء كما هو مشاهد فى كل عصر ومصر ، ولا سيما فى هذا العصر الذى انتشرت فيه الخلاعة وكثر الفسق والفجور .

(وكان الله غفورا رحيما) أى وربك غفار لما عسى أن يكون قد صدر من الإخلال بالستر ، كثير الرحمة لمن امتثل أمره معهن ، فيثيبه عظيم الثواب ويجزيه الجزاء الأوفى .

ولما كان الأذى إنما يحصل من أهل النفاق ومن على شاكلتهم حذرهم بقوله :

(لئن لم ينته المنافقون والذين فى قلوبهم مرض والمرجفون فى المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا) أى لئن لم يكفّ أهل النفاق الذين يستسرّون الكفر ويظهرون الإيمان ، وأهل الريب الذين غلبتهم شهواتهم وركنوا إلى الخلاعة والفجور ، وأهل الإرجاف فى المدينة الذين ينشرون الأخبار المفقة الكاذبة التى فيها إظهار عورات المؤمنين وإبراز ما استكنّ من خفاياهم كضعف جنودهم وقلة سلاحهم وكُراعهم ونحو ذلك مما فى إظهاره مصلحة للعدو وخضد لشوكة المسلمين — لنسلطنك عليهم وندعونّك إلى قتالهم وإجلائهم عن البلاد ، فلا يسكنون معك فيها إلا قليلا وتخلو المدينة منهم بالموت أو الإخراج .

والخلاصة — إن الله سبحانه قد توعد أصنافا ثلاثة من الناس بالقتال والقتل أو النفى من البلاد وهم :

(١) المنافقون الذين يؤذون الله سرًّا .

(٢) من فى قلوبهم مرض فيؤذون المؤمنين باتباع نسائهم .

(٣) المرجفون الذين يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم بنحو قولهم : غُلب محمد ، وسيخرج محمد من المدينة ، وسيؤخذ أسيرا إلى نحو ذلك مما يراد به إظهار ضعف المؤمنين وسخط الناس منهم .

ثم بين مآل أمرهم من خزى الدنيا وعذاب الآخرة فقال :

(ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا) أى فى ذلك الوقت القليل الذى يجاورونك فيه يكونون مطرودين من باب الله وبابك ، وإذا خرجوا لا ينفكون عن المذلة ولا يجدون ملجأ ، بل أينما يكونوا يطلبوا ويؤخذوا ويقتلوا تقتيلا .

ثم بين أن هذا الحكم عليهم وعلى أمثالهم بنحو هذا هو شرعة الله على أشباههم من قبل ، فهو ليس ببدع فيهم كما قال :

(سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) أى إن سنته تعالى فى المنافقين فى كل زمان إذا استمروا فى كفرهم وعنادهم ولم يرجعوا عما هم فيه أن يسلط عليهم أهل الإيمان فيذلوهم ويقهروهم ، وهذه السنة لا تغير ولا تبدل ، لابتنائها على الحكمة والمصلحة ، ولا يقدر غيره على تغييرها .

يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا (٦٣) إِنَّ اللهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ وَأَعَدَّ لَهُمْ سَعِيرًا (٦٤) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا (٦٥) يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَا (٦٦) وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا (٦٧) رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا (٦٨) .

شرح المفردات

الساعة : يوم القيامة ، وما يدريك : أى وأىّ شىء يعلمك وقت قيامها ، سعيرا : أى نارا مستعرة متقدة ، سادتنا : أى ملوكنا ، وكبراءنا : أى علماءنا ، ضعفين من العذاب : أى مثلى عذابنا : لأنهم ضلوا وأضلوا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر حال هذه الفئات الثلاث فى الدنيا وأنهم يلعنون ويهانون ويقتلون ، عطف على ذلك ذكر حالهم فى الآخرة فذكّرهم بيوم القيمة وبيّن ما يكون لهم فى هذا اليوم .

الإيضاح

(يسألك الناس عن الساعة) أى يكثر الناس هذا السؤال ، متى تقوم الساعة ؟ فالمشركون يسألون عن ذلك استعجالا لها على طريق التهكم والاستهزاء ؛ والمنافقون يسألون سؤال المتعنت العالم بما يجيب به الرسول ؛ واليهود يسألون سؤال امتحان واختبار ، ليعلموا أيجيب بمثل ما فى التوراة من ردّ أمرها إلى الله أم يجيب بشىء آخر؟

فلقنه الله الجواب عن هذا بجعل ردّ ذلك إليه تعالى فقال :

(قل إنما علمها عند الله) الذى أحاط علمه بكل شىء ، ولم يطلع عليها ملكا مقربا ولا نبيا مرسلا .

ثم أكد نفى علمها من أحد غيره بقوله :

(وما يدريك) أى وأىّ شىء يعلمك وقت قيامها ؟ أى لا يعلمك به أحد أبدا .

ثم أخبر عن قرب وقوعها بقوله :

(لعل الساعة تكون قريبا) أى لعلها توجد وتحقق بعد وقت قريب .

ونحو الآية قوله : « اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ » وقوله : « اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ » وقوله : « أَتَى أَمْرُ اللهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ » .

وفى هذا تهديد للمستعجلين المستهزئين ، وتبكيت للمتمنين والمتعنتين .

ثم بين حال السائلين عنها المنكرين لها بقوله :

(إن الله لعن الكافرين وأعدّ لهم سعيرا . خالدين فيها أبدا) أى إن الله أبعد الكافرين به من كل خير ، وأقصاهم من كل رحمة ، وأعد لهم فى الآخرة نارا تتقد وتتسعر ليصلوها ، ماكثين فيها أبدا إلى غير نهاية .

ثم أيأسهم من وجود ما يدفع عنهم العذاب من الولىّ والنصير بقوله :

(لايجدون وليّا ولا نصيرا) أى لايجدون حينئذ من يستنقذهم من السعير وينجيهم من عذاب الله بشفاعة أو نصرة كما هى الحال فى الدنيا لدى الظلمة ، إذ ربما وجد النصير والشفيع الذى يخلص فيها من الورطات ويدفع المصايب والنكبات .

(يوم تقلّب وجوههم فى النار يقولون ياليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا) أى لايجدون وليا ولا نصيرا حين تصرف وجوههم فيها من جهة إلى أخرى كاللحم يشوى فى النار أو يطبخ فى القدر فيدور به الغليان من جهة إلى أخرى ، ويقولون إذ ذاك على طريق التمنى : ليتنا أطعنا الله فى الدنيا وأطعنا رسوله فيما جاء نابه من أمر ونهى ، فما كنا نبتلى بهذا العذاب ، بل كنا مع أهل الجنة فى الجنة ـ يا لها حسرة وندامة ما أعظمها وأجلها .

ندم البغاة ولات ساعة مندم والبغى مرتع مبتغيه وخيم

ونحو الآية قوله : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا » وقوله : « رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ » .

ثم ذكر بعض معاذيرهم بإلقائهم التبعة على من أضلوهم من كبرائهم وسادتهم بقوله :

(وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا) أى وقال الكافرون يومئذ وهم فى جهنم : ربنا إنا أطعنا أئمتنا فى الضلالة وكبراءنا فى الشرك فأضلونا السبيل ، وأزالونا عن محجة الحق وطريق الهدى من الإيمان بك والإقرار بوحدانيتك والإخلاص لطاعتك فى الدنيا .

وفى هـذا إحالة الذنب على غيرهم كما هى عادة المذنب يفعل ذلك وهو يعلم أنه لايجديه نفعا .

ثم ذكر أنهم يدعون ربهم على طريق التشفى ممن أوردهم هذا المورد الوخيم ، أن يضاعف لهم العذاب ، إذ كانوا سبب ضلالهم ووقوعهم فى بلواهم وإن كانوا يعلمون أن ذلك لايخلصهم مما هم فيه ، فقالوا :

(ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنا كبيرا) أى ربنا عذبهم مثلى عذابنا الذى تعذبنا به : مِثْلاً على ضلالهم ، ومثلا على إضلالهم إيانا ، واخزهم خزيا عظيما واطردهم من رحمتك .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمرو أن أبا بكر قال : يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى ، قال : « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلما كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت ، فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى ، إنك أنت الغفور الرحيم » .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللهِ وَجِيهاً (٦٩) .

شرح المفردات

الوجيه : هو ذو الجاه والمنزلة ومن يكون له من خصال الخير ما به يعرف ولا ينكر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أن من يؤذى الله ورسوله يلعنه الله فى الدنيا والآخرة ، ولا شك أن هـذا فى الإيذاء الذى يؤدى إلى الـكفر ، وقد حصره الله فى النفاق ومرض القلب والإرجاف على المسلمين - أعقب ذلك بإيذاء دون ذلك لايورث الـكفر كعدم الرضا بقسمة النبى صلى الله عليه وسلم لالفىء ونهى الناس عنه أيضا ، وذكر أن بنى إسرائيل قد آذوا موسى ونسبوا إليه ما ليس فيه فبرأه الله منه لأنه ذو كرامة ومنزلة لديه فلا يلصق به ما هو نقص فيه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا بالله ورسوله لاتؤذوا الرسول بقول يكرهه ولا بفعل لايحبه ، ولا تكونوا أمثال الذين آذوا موسى نبى الله فرموه بالعيب كذبا و باطلا ، فبرأه الله مما قالوه من الـكذب والزور بما أظهر من الأدلة على كذبهم ، وقد كان موسى ذا وجاهة وكرامة عند ربه لايسأله شيئا إلا أعطاه إياه .

ولم يعين لنا الـكتاب الـكريم ما قالوا فى موسى ، ومن الخير ألا نعينه حتى لا يكون ذلك رجما بالغيب دون أن يقوم عليه دليل ، وقد اختلفوا فيه أهو عيب فى بدنه كبرص ونحوه ، أم هو عيب فى خُلُقه ؟ فقد رووا أن قارون حرّض بغيا على قذفه بنفسها فعصمه الله من كذبها ، وقيل إنهم اتهموه بقتل هرون لما خرج معه إلى الطور ومات هناك ثم استبان لهم بعد أنه مات حتف أنفه .

روى الشيخان عن عبد الله بن مسعود قال : « قسم رسول الله ذات يوم قسما فقال رجل من الأنصار : إن هذه القسمة ما أريد بها وجه الله فاحمرّ وجهه ثم قال : رحمة الله على موسى فقد أوذى بأكثر من هذا فصبر » .

وروى أحمد عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « لايُبَلِّغنّى أحد عن أحد من أصحابى شيئا فإنى أحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر » .

وعنه أيضا أنه قال : «أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مال فقسمه ، قال فمررت برجلين ، وأحدهما يقول لصاحبه: والله ما أراد محمد بقسمته وجه الله ولا الدار الآخرة ، قال فثبتّ حتى سمعت ما قالا ، ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت : يا رسول الله إنك قلت لنا : لا يبلغنى أحد عن أصحابى شيئا و إنى مررت بفلان وفلان وهما يقولان كذا وكذا ، فاحمرّ وجه رسول الله وشق عليه ثم قال : دعنا منك لقد أوذى موسى بأكثر من هذا فصبر » .

ومن هـذا يتبين أن إيذاء موسى كان بالقدح فى أعماله وتصرفاته ، لا بالعيب فى بدنه كما روى .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ، وَمَنْ يُطِعِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيماً (٧١) .

شرح المفردات

القول السديد : القول الصدق الذى يراد به الوصول إلى الحق ، من قولهم : سدد سهمه إذا وجهه للغرض المرمىّ ولم يعدل به عن سمته .

المعنى الجملى

بعد أن نهى سبحانه عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل ، أرشدهم إلى ما ينبغى أن يصدر منهم من الأقوال والأفعال التى تكون سببا فى الفوز والنجاة فى الدار الآخرة ، والقرب من الله سبحانه والحظوة إليه .

الإيضاح

يأيها الذين آمنوا اتقوا الله أن تعصوه فتستحقوا بذلك عقوبته ، وقولوا فى رسول الله والمؤمنين قولا قاصدا غير جائر ، حقا غير باطل ، يوفقكم لصالح الأعمال ويغفر لكم ذنوبكم فلا يعاقبكم عليها .

ومن يطع الله ورسوله فيعمل بما أمره به وينته عما نهاه عنه ويقل السديد من القول فقد ظفر بالمثوبة العظمى والكرامة يوم العرض الأكبر .

والخلاصة — إنه سبحانه أمر المؤمنين بشيئين : الصدق فى الأقوال ، والخير فى الأفعال ، وبذلك يكونون قد اتقوا الله وخافوا عقابه ، ثم وعدهم على ذلك بأمرين:

(١) إصلاح الأعمال إذ بتقواه يصلح العمل ، والعمل يرفع صاحبه إلى أعلى عليين ويجعله يتمتع بالنعيم المقيم فى الجنة خالدا فيها أبدا .

(٢) مغفرة الذنوب وستر العيوب والنجاة من العذاب العظيم .

إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً (٧٢) لِيُعَذِّبَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ، وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً (٧٣) .

شرح المفردات

العرض هنا : النظر إلى استعداد السموات والأرض ، والأمانة كل ما يؤتمن عليه المرء من أمر ونهى فى شئون الدين والدنيا ، والمراد بها هنا التكاليف الدينية ، وسميت أمانة من قبل أنها حقوق أوجبها الله على المكلفين وائتمنهم عليها وأوجب عليهم تلقيها بالطاعة والانقياد وأمرهم بالمحافظة عليها وأدائها دون الإخلال بشىء منها ،

فأبين : أى كنّ غير مستعدات لها ، وحملها الإنسان : أى كان مستعدا لها ، إنه كان ظلوما : أى كثير الظلم لما غلب عليه من القوة الغضبية ، جهولا : أى كثير الجهل لعواقب الأمور لما غلب عليه من القوة الشهوية .

المعنى الجملى

بعد أن بين عزّ اسمه عظم شأن طاعة الله ورسوله ، وأن من يراعيها فله الفوز العظيم ، ومن يتركها استحق العذاب الأليم ـ أردف ذلك بعظم شأن ما تنال به تلك الطاعة من فعل التكاليف الشرعية وأن حصولها عزيز شاقّ على النفوس ، ثم بيان أن ما يصدر منهم من الطاعة أو يكون منهم من إباء بعدم القبول والالتزام إنما يكون بلا جبر ولا إلزام .

الإيضاح

(إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان إنه كان ظلوما جهولا) أى إنا لم نخلق السموات والأرض على عظم أجرامها وقوة أسرها مستعدة لحمل التكاليف بتلقى الأوامر والنواهى والتبصر فى شئون الدين والدنيا ، ولكن خلقنا الإنسان على ضعف مُنَّته وصغر جِرْمه مستعدا لتلقيها والقيام بأعبائها ، وهو مع ذلك قد غلبت عليه الانفعالات النفسية الداعية إلى الغضب فكان ظلوما لغيره ، وركب فيه حب الشهوات والميل إلى عدم التدبر فى عواقب الأمور ، ومن ثم كلفناه بتلك التكاليف لتكسر سورة تلك القوى وتخفف من سلطانها عليه وتكْبت من جماحها حتى لا توقعه فى مواقع الردى .

ثم بين عاقبة تلك التكاليف فقال :

(ليعذب الله المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات) أى وكان عاقبة حمل الإنسان لهذه الأمانة أن يعذب من خانها وأبى الطاعة

والانقياد لها من المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات ، ويقبل توبة المؤمنين والمؤمنات إذا رجعوا إليه وأنابوا ، لتلافيهم ما فرط منهم من الجهل وعدم التبصر فى العواقب وتداركهم ذلك بالتوبة .

ثم علل قبوله لتوبتهم بقوله :

(وكان الله غفورا رحيما) أى وكان الله ستارا لذنوب عباده كثير الرحمة بهم ، ومن ثم قبل توبة من أناب إليه ورجع إلى حظيرة قدسه وأخلص له العمل وتلافى ما فرط منه من الزلات ، وأثابه على طاعته بالفوز العظيم .

نسألك اللهم أن تتوب علينا ، وتغفر لنا ما فرط منا من الزلات ، وتثيبنا بالفوز العظيم فى الجنات ، إنك سميع قريب مجيب الدعوات .

تنبيـــه

ذكر سبحانه فى هذه السورة الكثير من الشئون الزوجية وكيف تعامل الزوجات ، وقد رأينا أن نذكر هنا مسألتين كثر الخوض فيهما من أرباب الأديان الأخرى ومن نابتة المسلمين الذين تعلموا فى مدارسهم وسمعوا كلام المبشرين ، ظنا منهم أنهم وجدوا مغمزا فى الإسلام وأصابوا هدفا يصمى الدين ، ويجعل معتنقيه مضغة فى أفواه السامعين ، وأنّى لهم ذلك ، وليتهم فكروا وتأملوا ، قبل أن يتكلموا .

أرى العنقاء تكبر أن تصادا فعاند من تطيق له عنادا

(١) تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم وكثرتهن بينما لم يبح مثل ذلك لأمته .

(٢) إباحة تعدد الزوجات لعامة المسلمين .

ومن ثم وجب علينا أن نميط اللثام عن الأسباب التى دعت إلى كل منهما .

أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم

قبل أن ندخل فى تفاصيل البحث نذكر لك أن النبى صلى الله عليه وسلم عاش مع خديجة خمسا وعشرين سنة لم يتزوج سواها ، وكانت سنه إذ ذاك ناهزت

الخمسين ، وكان قد تزوجها فى شرخ شبابه إذ كانت سنه وقتئذ خمسا وعشرين سنة وكانت سنها أربعين وعاشا معا عيشا هنيا شعاره الإخلاص والوفاء ، وكانت من أكبر أنصاره على الكفار الذين سخروا منه وألحقوا به ضروبا شتى من الأذى ، ولم يشأ أن يتزوج غيرها مع ما كان يبيحه له عرف قومه ، بل ظل وفيا لها حتى توفيت فحزن عليها حزنا شديدا وسمى عام وفاتها عام الحزن ، ولم ينقطع عن ذكراها طوال حياته .

والآن حق علينا أن نذكر لك الأسباب التى حدت النبى صلى الله عليه وسلم إلى التعدد ؛ وهى قسمان : أسباب عامة وأسباب خاصة :

الأسباب العامة

(١) إن رسالة النبى صلى الله عليه وسلم عامة للرجال والنساء ، ومن التشريع ما هو مشترك بين الرجل والمرأة وما هو خاص بأحدهما ، وكل يحتاج فى تلقينه إلى عدد ليس بالقليل لتفرق المرسل إليهم وكثرهم وقصر زمن حياة الرسول ، وكثرة الأحكام ، وإلا لم يحصل التبليغ على الوجه الأتم .

ومن الأحكام المتعلقة بالنساء ما تستحيي المرأة أن تعرفه من الرجل ، ويستحيي الرجل من تبليغه للمرأة ، ألا ترى إلى ما روى عن عائشة رضى الله عنها أن أسماء بنت يزيد الأنصارية قالت للنبى صلى الله عليه وسلم : كيف أغتسل من الحيض ؟ قال : خذى فرصة ممسكة (قطعة قطن) فتوضئ — قالها ثلاثا وهو فى كل ذلك يقول : سبحان الله عند إعادتها السؤال ، ثم أعرض عنها بوجهه استحياء ، فأخذتها عائشة وأخبرتها بما يريد النبى صلى الله عليه وسلم .

ومن ثم وجب أن يتلقى الأحكام الخاصة بالنساء من الرسول صلى الله عليه وسلم عدد كثير منهن ، وهن يبلغن ذلك إلى النساء ، ولا يصلح للتلقى عنه إلا أزواجه ، لأنهن لهن خصائص تمكنهن من معرفة أغراض النبى دون تأفف ولا استحياء ،

يرشد إلى ذلك قوله صلى الله عليه وسلم « خذوا نصف دينكم عن هذه الحميراء » يريد عائشة رضى الله عنها ، والعرب تقول امرأة حمراء : أى بيضاء .

(٢) إن المصاهرة من أقوى عوامل التآلف والتناصر كما هو مشاهد معروف ، والدعوة فى أول أمرها كانت فى حاجة ماسة إلى الإكثار من ذلك ، لاجتذاب القبائل إليه ومؤازرتهم له ، لذود عوادى الضالين ، وكف أذاهم عنه ، ومن ثم كان أكثر زوجاته من قريش سيدة العرب .

(٣) إن المؤمنين كانوا يرون أن أعظم شرف وأمتن قربة إلى الله تعالى مصاهرتهم لنبيه وقربهم منه ، فمن ظفر بالمصاهرة فقد أدرك ما يرجو . ألا ترى أن عمر رضى الله عنه أسف جد الأسف حين فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته وقال : لايعبأ بعدها بعمر ، ولم ينكشف عنه الهم حتى روجعت ، وأن عليا كرم الله وجهه على اتصاله برسول الله صلى الله عليه وسلم من طريق النسب وشرف اقترانه بالزهراء رغب فى أن يزوجه أخته أم هانئ بنت أبى طالب ليتضاعف شرفه ولم يمنعها من ذلك إلا خوفها أن تقصّر فى القيام بحقوق الرسول مع خدمة أبنائها .

الأسباب الخاصة بزواج كل واحدة من أمهات المؤمنين

(١) تزوج النبي صلى الله عليه وسلم بعد خديجة سَوْدة بنت زَمْعة أرملة السكران بن عمرو الذى أسلم واضطر إلى الهجرة إلى بلاد الحبشة هربا من اضطهاد المشركين ومات هناك وأصبحت امرأته بلا معين ، وهى أرمل رجل مات فى سبيل الدفاع عن الحق ، فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم وفاء لرجل غادر الأهل والأوطان احتفاظا بعقيدته ، وقد شاركته هذه الزوجة فى أهوال التغريب والنفى ، وحماية لها من أهلها أن يفتنوها ، لأنها هاجرت مع زوجها على غير رغبتهم .

(٢) تزوج ميمونة بنت الحارث الهلالية وعمرها زهاء خمسين عاما، وكان زواجه منها سببا فى دخول خالد بن الوليد فى دين الله ، وهو المجاهد الكبير والبطل العظيم ،

وهو الذى غلب الروم على أمرهم فيما بعد ، وله فى الإسلام أيام غُرٌّ محجلة — إلى أن زواجها بالنبي صلى الله عليه وسلم يسر لذوى قرباها وسيلة للعيش فطعموا من جوع وأمنوا من خوف وأثروا بعد فاقة .

(٣) تزوج جُوَيرية وكان أبوها الحارث بن ضرار سيد بنى المصطلق بن خزاعة جمع قبل إسلامه جموعا كثيرة لمحاربة النبي صلى الله عليه وسلم ، ولما التقى الجمعان عرض عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم الإسلام فأبوه فحاربهم حتى هزموا ووقعت جويرية فى سهم ثابت بن قيس ، فكاتبها على سبع أواق من الذهب فلم تر معينا لها غير النبي صلى الله عليه وسلم فجاءت إليه وأدلت بنسبها وطلبت حريتها فتذكر النبي صلى الله عليه وسلم ما كان لأهلها من العز والسؤدُد وما صاروا إليه بسوء التدبير والعناد ، فأحسن إليها وإلى قومها بأداء ما عليها من نجوم ثم تزوجها فقال المسلمون بعد أن اقتسموا بنى المصطلق : إن أصهار رسول الله لايُسترقون ، وأعتقوا من بأيديهم من سبيهم ، وعلى إثر ذلك أسلم بنو المصطلق شكرا لله على الحرية بعد ذل الكفر والأسر .

(٤) تزوج السيدة عائشة مكافأة لأبى بكر الصديق ، إذ كان شديد التمسك برسول الله صلى الله عليه وسلم مولعا بالتقرب منه ، فكان ذلك قرة عين لها ولأبويها وفخرا لذوى قرباها ، وكان عبد الله بن الزبير (ابن أختها) يفاخر بنى هاشم بذلك .

(٥) تزوج أم المؤمنين حفصة بنت عمر مكافأة لزوجها الذى توفى مجروحا فى موقعة بدر ؛ وفى تلك الحقبة كانت السيدة رُقية بنت الرسول وزوج عثمان قد توفيت ، فعرض عمر ابنته على عثمان فأعرض عنها رغبة فى أم كلثوم بَضْعة الرسول ليستديم له بذلك الشرف ، فعز هذا على عمر وأنفت نفسه فشكاه إلى أبى بكر فقال له لعلها تتزوج من هو خير منه ويتزوج من هى خير منها له (يريد زواج عثمان بأم كلثوم وزواج حفصة بالنبي صلى الله عليه وسلم) .

(٦) تزوج صفية بنت حيىّ بن أخطب سيد بنى النضير ، وكانت قد وقعت

فى السبى مع عشيرتها ، فأراد النبى صلى الله عليه وسلم أن يتزوجها رأفة بها إذ ذلت بعد عزة واسترقت وهى السيدة الشريفة عند أهلها ، وتأليفا لقومها حتى يدخلوا فى كنف الإسلام وينضووا تحت لوائه .

(٧) تزوج زينب بنت جحش الأسدية ، لإبطال عادة جاهلية كانت متأصلة عند العرب وهى التبنى بتنزيل الدعىّ منزلة الابن الحقيقى ، وإذ أراد الله إبطال هذه العادة جعل رسوله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة فى هذا ، فسعى فى تزويج زيد مولاه بعد أن أعتقه بزينب ذات الحسب والجد فأنفت هى وأخوها عبد الله ، وأبت أن تكون زوجا لدعىّ غير كفء ، فأنزل الله « وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ » فرضيا بقضاء الله ورسوله غير أنها كانت نافرة من هـذا القران مترفعة عن زيد ضائقة به ذرعا فآثر فراقها فسأل الرسول الإذن فى ذلك فقال له : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأخفى فى نفسه ما الله مبديه من تزوجه منها بعد زيد وخشى أن يقول الناس : تزوج محمد من زيد ابنه .

ولما لم يبق لزيد فيها شىء من الرغبة طلقها فتزوجها النبى صلى الله عليه وسلم إبطالا لتلك العادة وهى إعطاء المتبَنى حكم الابن ، وقد تقدم تفصيل هذا فى أثناء تفسير السورة بشىء من البسط والإيضاح .

ومما سلف يستبين لك أن ما يتقوله غير المنصفين من الغربيين من أن النبى صلى الله عليه وسلم خوّل لنفسه ميزة لم يعطها لأحد من أتباعه ـ لا وجه له من الصحة فإن زواجه بأمهات المؤمنين كان لأغراض اجتماعية اقتضتها الدعوة ، ودعا إليها حب النصرة ، ولا سيما إذا علم أنه لم يتزوج بكرا قط إلا عائشة ، وأن من أمهات المؤمنين من كن فى سن الكهولة أو جاوزنها .

أسباب إباحة تعدد الزوجات فى الإسلام

يجدر بذوى الحصافة فى الرأى أن ينظروا إلى الأسباب التى دعت أن يبيح الإسلام تعدد الزوجات دون أن ينقموا عليه ذلك و يرموه بالقسوة ، فإن فى بعضها ما هو موجب للتعدد لا مجيز له فحسب .

وهاك أهم الأسباب :

(١) قد تصاب المرأة أحياناً بمرض مزمن أو مرض معدٍ يجعلها غير قادرة على القيام بالواجبات الزوجية ، فيضطر الرجل إلى أن يقترف ما ينافى الشرف والمروءة و يُغضب الله ورسوله إن لم يبح له أن يتزوج بأخرى .

(٢) دل الاستقراء على أن عدد النساء يربو على عدد الرجال ، لما يعانيه هؤلاء من الأعمال الشاقة التى تنهك القوى وتضوى الأجسام ، ولا سيما الحروب الطاحنة ، فإذا منع التعدد لايجد بعض النساء أزواجا يحصنونهن ويقومون بشئونهن ، فيكثر الفساد و يمحق الأسر الصار وتمضهن الحياة بأنيابها .

(٣) حضت الشريعة الإسلامية على كثرة النسل لتقوى شوكة الإسلام وتعلو سطوته وتنفذ كلمته حتى ترهبه الأعداء وتتقيه الأمم المناوئة له ، ولا يمكن الوصول إلى ذلك إلا بإباحة تعدد الزوجات ، لأن المنع مفض إلى تناقص النسل ، ولا أدل على ذلك من أن عقلاء الأمم فى الغرب أشفقوا على أممهم لما اعتراها من نقص فى النسل بسبب منع التعدد من ناحية و إحجام كثير من شبابهم عن الزواج والاجتزاء بالسفاح فرارا من الحقوق الزوجية وأعباء الأولاد من ناحية أخرى ، ومن ثم لجأ كثير من الدول الغربية إلى ارتباط بعضهم ببعض بالحلف والعهود والمواثيق ، طلبا لنيل فائدة التكاثر ، و بذلك تبقى لهم السيادة الدولية .

(٤) دل الإحصاء فى كثير من البلاد الغربية على أن حظر تعدد الزوجات أدى إلى كثرة الأولاد غير الشرعيين مما حدا بعض المفكرين إلى النظر فى توريثهم.

(٥) كان من نتائج منع التعدد انتشار كثير من الأمراض الفتاكة التى أصابت الرجال والنساء والأطفال حتى عجز الطب عن مكافحتها وتغلغل الداء وعز الدواء، مما جعل بعض البلاد تسن القوانين التى تمنع عقد الزواج إلا بعد إحضار صك رسمى بخلو الزوجين من الأمراض المعدية والأمراض التى تجعل النسل ضعيفا ضاويا لايستطيع الكفاح فى الحياة .

ما حوته السورة الكريمة من أغراض ومقاصد

(١) الأمر بتقوى الله وعدم طاعة الكافرين والمنافقين .

(٢) وجوب اتباع ما ينزل به الوحى مع ضرب المثل لذلك .

(٣) إبطال العادة الجاهلية وهى إعطاء المتبنى حكم الابن وبيان أن الدين منه براء .

(٤) إبطال التوريث بالحلف والتوريث بالهجرة ، وإرجاع التوريث إلى الرحم والقرابة .

(٥) ذكر النعمة التى أنعم بها عليهم فى وقعة الخندق بعد أن اشتد بهم الخطب.

(٦) تخيير النبى نساءه بين شيئين : الفراق إذا أردن زينة الحياة الدنيا والبقاء معه إذا أحببن الله ورسوله والدار الآخرة .

(٧) التشديد عليهن بمضاعفة العذاب إذا ارتكبن الفواحش ، ونهيهن عن الخضوع فى القول وأمرهن بالقرار فى البيوت ، وتعليمهن كتاب الله وسنة رسوله ، ونهيهن عن التبرج .

(٨) قصة زينب بنت جحش وزيد مولى رسوله صلى الله عليه وسلم .

(٩) ما أحل لنبيه من النساء وتحريم الزواج عليه بعد ذلك .

(١٠) النهى عن إيذاء المؤمنين للنبى صلى الله عليه وسلم إذا دخلوا بيته لطعام ونحوه .

(١١) الأمر بكلام أمهات المؤمنين من وراء حجاب إذا طلب منهن شىء إلا الآباء والأبناء والأرقاء .

(١٢) أمرهن بإرخاء الجلباب إذا خرجن لقضاء حاجة .

(١٣) تهديد المنافقين وضعاف الإيمان والمرجفين فى المدينة .

(١٤) سؤال المشركين عن الساعة متى هى ؟

(١٥) النهى عن إيذاء النبى حتى لا يكونوا كبنى إسرائيل الذين آذوا موسى .

سـورة سبأ

هى مكية إلا الآية السادسة منها فمدنية ، وعدد آيها أربع وخمسون نزلت بعد لقمان .

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إن الصفات التى أجريت على الله فى مفتتحها تشاكل الصفات التى نسبت إليه فى مختتم السورة السالفة .

(٢) إنه فى السورة السابقة قد ذكر سؤال الكفار عن الساعة استهزاء ، وهنا حكى عنهم إنكارها صريحا وطعنهم، على من يقول بالبعث، وقال هنا ما لم يقله هناك .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِى الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١) يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ (٢) .

شرح المفردات

الحمد : هو الثناء على الله بما هو أهله ، والحكيم : الذى أحكم أمر الدارين ودبره على حسب ماتقتضيه الحكمة، والخبير : هو الذى يعلم بواطن الأمور وخوافيها، يلج فى الأرض : أى يدخل فيها ، ويعرج : أى يصعد .

الإيضاح

(الحمد لله الذى له ما فى السموات وما فى الأرض) أى الحمد الكامل للمعبود المالك لجميع ما فى السموات وما فى الأرض دون كل ما يعبدونه ودون كل شىء سواه إذ لا مالك لشىء من ذلك غيره .

والخلاصة — إن له عز وجل جميع ما فى السموات وما فى الأرض خلقا وملكا وتصرفا بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة .

ولما بين اختصاصه بالحمد فى الدنيا أعقبه ببيان أن له وحده الحمد فى الآخرة فقال:

(وله الحمد فى الآخرة) أى وله الحمد فى الآخرة خالصا دون سواه على ما أنعم به فيها كما حكى عن أهلها من قولهم: « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَبَوَّأُ مِنَ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ » وقولهم : « الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ . الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ » .

(وهو الحكيم الخبير) أى وهو المدبّر لشئون خلقه على ما تقتضيه الحكمة، الخبير ببواطن الأمور ومكنوناتها .

ثم فصل بعض ما يحيط به علمه من الأمور التى نيطت بها مصالح عباده الدنيوية والأخروية فقال :

(يعلم ما يلج فى الأرض وما يخرج منها) أى يعلم ما يدخل فى الأرض كالغيث ينفذ فى موضع وينبع فى آخر ، وكالكنوز والدفائن والأموات ، وما يخرج منها كالحيوان والنبات والغازات وماء العيون والمعادن التى مضى عليها آلاف السنين ، ومخلفات الأمم ومصنوعاتهم كمخلفات المصريين القدماء ونقوش آشور وبابل وعجائب أهل سبأ وصناعاتهم مما استخرجه علماء العاديات من الأوربيين فى القرن الماضى والعصر الحاضر ، ولا يزالون كل يوم يكشفون جديدا يدل على أن الشرق كان ذا مدنية وحضارة لايدانيها أعظم ما يوجد فى الغرب الآن فى أرقى ممالكه .

(وما ينزل من السماء) كالملائكة والكتب والأرزاق والمطر والصواعق .

(وما يعرج فيها) كالملائكة وأعمال العباد والأبخرة والدخان والطائرات والمطاود الجوية .

(وهو الرحيم الغفور) أى وهو مع كثرة نعمه وسبوغ فضله ، رحيم بعباده فلا يعاجل بالعقوبة ، غفور لذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَالِمُ الْغَيْبِ لاَ يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى السَّمَوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ وَلاَ أَصْغَرُ مِنْ ذَٰلِكَ وَلاَ أَكْبَرُ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مُبِينٍ (٣) لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِى آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٍ (٥) وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (٦) .

شرح المفردات

لايعزب عنه : أى لايفوته علمه ، مقدار ذرة : أى مقدار أصغر نملة ، والكتاب المبين : اللوح المحفوظ ، رزق كريم : أى حسن لاتعب فيه ولا منّ عليه ، معاجزين : أى مسابقين يظنون أنهم يفوتوننا فلا نقدر عليهم ، رجز : أى عذاب شديد ، العزيز أى الذى يَغْلِبُ ولا يُغلب ، الحميد : أى المحمود فى جميع شئونه ، وصراطه : هو التوحيد والتقوى .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أن له الحمد فى الآخرة على ما أسدى إلى عباده من النعم ، أردف ذلك ببيان أن كثيرا منهم ينكرها أشد الإنكار ويستهزئ بمن يثبتها ويعتقد أنها ستكون ، وقد بلغ من تهكمهم أنهم يستعجلون مجيئها ظنا منهم أن هذه خيالات بل أضغاث أحلام ، وقد ذكر أن مجيئها ضربة لازب ، لتجزى كل نفس بما كسبت من خير أو شر ، ثم أعقب هذا ببيان أن الناس فريقان : مؤمن

بآيات ربه يرى أنها الحق وأنها تهدى إلى الصراط المستقيم ، ومعاند جاحد بها يسعى فى إبطالها ، ومآل أمره العذاب الأليم على ما دسى به نفسه من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة) أى وقال الذين ستروا ما أرشدتهم إليه عقولهم من البراهين الدالة على قيام الساعة : إنه لا رجعة بعد هذه الدنيا ولا بعث ولا حساب ، إن هى إلا أرحام تدفع ، وأرض تبلع ، وما نحن بمبعوثين .

وقد أمر الله رسوله أن يرد عليهم مؤكدا لهم بطلان ما يدعون .

(قل بلى وربى لتأتينكم) أى قل لهم إنها وربى لآتية لا ريب فيها .

وهذه الآية إحدى آيات ثلاث أمر الله فيها رسوله أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد حين أنكره من أنكره من أهل الشرك والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس « وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ » وثانيتها فى سورة التغابن « زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا. قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ » وثالثتها ما هنا .

ثم وصف المولى نفسه بكامل العلم وعظيم الإحاطة بالموجودات مما يؤكد صحة البعث فقال :

(عالم الغيب لا يعزب عنه مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا فى كتاب مبين) أى إن وقت مجيئها لا يعلمه سوى علام الغيوب الذى لا يغيب عن علمه شىء فى السموات ولا فى الأرض من ذرة فما دونها ولا ما فوقها، أين كانت وأين ذهبت ، فكل ذلك محفوظ فى كتاب مبين ، فالعظام وإن تلاشت، واللحوم وإن تفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، فيعيدها كما بدأها أول مرة وهو بكل شىء عليم .

ثم بين الحكمة فى إعادة الأجسام وقيام الساعة بقوله :

(ليجزى الذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك لهم مغفرة ورزق كريم) أى أثبت ذلك فى الكتاب المبين ليثيب الذين آمنوا بالله وعملوا بما أمرهم الله ورسوله به وانتهو عما نهاهم عنه ، وأولئك لهم مغفرة من ربهم لذنوبهم ، وعيش هنىء فى الجنة لاتعب فيه ولا منّ عليه .

والخلاصة — إن الحكمة تقتضى وجودها وليس هناك مانع منها ، فالعلم المحيط بالغيب موجود ، فقد وجد المقتضى لوجودها وارتفع المانع من إثباتها .

(والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك لهم عذاب من رجز أليم) أى وليجزى الذين سعوا فى إبطال أدلتنا وحججنا عنادامنهم وكفرا، وظنوا أنهم يسبقوننا بأنفسهم فلا نقدر عليهم بشديد العذاب ، لما اجترحوا من السيئات ودسوا به أنفسهم من قبيح الأعمال .

وإجمال ذلك — إن الساعة آتية لامحالة ، لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين .

ونحو الآية قوله : « أَمْ نَجْعَلُ الذِينَ آمَنوا وَعَمِلوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِى الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ » وقوله : « لَايَسْتَوِى أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ » .

ثم استشهد باعتراف أولى العلم ممن آمن من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما بصحة ما أنزل إليك ليردّ به على أولئك الجهلة الساعين فى الآيات الذين أنكروا الساعة فقال :

(ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل إليك من ربك هو الحق ويهدى إلى صراط العزيز الحميد) أى وقال الجهلة المنكرون للبعث والحشر والحساب ـ إنه لارجعة بعد هذه الدنيا ؛ وقال العالمون من أهل الكتاب ومن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يأتى من بعدهم من أمته : إن الذى أنزل إليك من ربك مثبتا لقيام الساعة

ومجازاة كل عامل بما عمل من خير أو شر – هو الحق الذى لاشك فيه وأنه هو الذى يرشد من اتبعه وعمل به إلى سبيل الله الذى لايغالب ولا يمانع وهو القاهر لكل شىء والغالب له ، وهو المحمود على جميع أقواله وأفعاله وما أنزله من شرع ودين .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ (٧) أَفْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ، بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ (٨) أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (٩) .

شرح المفردات

تمزيق الشىء : تقطيع أوصاله وجعله قطعا قطعا . يقال ثوب مزيق وممزوق ومتمزّق وممزّق ، ومنه قوله :

إذا كنتُ مأكولا فكن خيرَ آكل وإلا فأدركنى ولمّا أمزق

والافتراء : اختلاق الكذب ، والجنة : الجنون وزوال العقل ، كسفا : قطعا واحدها كِسْفة ، منيب : أى راجع إلى ربه مطيع له .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنهم أنكروا الساعة ورد عليهم ما قالوا وأكده كل التأكيد ، ثم ذكر ما يكون إذ ذاك من جزاء المؤمن على ما عمل من صالح الأعمال وجزاء الساعى فى تكذيب الآيات بالتعذيب على السيئات لقاء ما دسّى به نفسه من

اجتراح المعاصى وفاسد المعتقدات ـ أردف ذلك بذكر مقال للكافرين ذكروه تهكما واستهزاء ، ثم ذكر الدليل على صحة البعث بخلق السموات والأرض ، ثم توعدهم على تكذيبهم بأشد الوعيد لعلهم يرجعون عن عنادهم ويثوبون إلى رشادهم .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟) أى وقال قريش بعضهم لبعض تعجبا واستهزاء وتهكما وإنكارا : هل سمعتم برجل يقول : إنا إذا تقطعت أوصالنا ، وتفرقت أبداننا ، وبليت عظامنا ، نرجع كرة أخرى أحياء كما كنا ونحاسب على أعمالنا ، ثم نثاب على الإحسان إحسانا ونجزى على اجتراح الآثام آلاما ، ونارا تلظى تشوى الوجوه والأجسام .

وخلاصة ذلك — إنه يقول إذا أكلتكم الأرض وصرتم رفاتا وعظاما وقطعتكم السباع والطير ستحيون وتبعثون ثم تحاسبون على مافرط منكم من صالح العمل وسيئه؛ ثم قسموا حاله فى الإخبار بهذا فى نظرهم قسمين فقالوا :

(أفترى على الله كذبا أم به جنة؟) أى إن أمره فى هذا دائر بين أمرين: إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه أوحى إليه ذلك ، أو أنه لُبِّس عليه كما يلبّس على المعتوه والمجنون .

وإجمال ذلك — إنه إما أن يكون مفتريا على الله وإما أن يكون مجنونا .

فرد الله عليهم مقالهم وأثبت لهم ما هو أشد وأنكى فقال :

(بل الذين لايؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد) أى ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه ، بل إن محمدا هو البر الرشيد الذى جاء بالحق وإنهم هم الكذبة الجهلة الأغبياء الذين بلغوا الغاية فى اختلال العقل وأوغلوا فى الضلال ، وبعدوا عن الإدراك والفهم ، وليس هذا إلا الجنون بعينه ، وسيؤدى ذلك بهم إلى

العذاب ، إذ هم قد أنكروا حكمة الله فى خلق العالم وكذبوه فى وعده ووعيده ، وتعرضوا لسخطه .

ثم ذكّرهم بما يعاينون مما يدل على كمال قدرته ، وفيه تنبيه لهم إلى ما يحتمل أن يقع لهم من القوارع التى تهلكهم ، وتهديد على ما اجترحوا من السيئات فقال :

(أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ؟ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء) أى أفلم ينظر هؤلاء المكذبون بالمعاد الجاحدون للبعث بعد الممات ، فيعلموا أنهم حيث كانوا فإن أرضى وسمائى محيطة بهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ، فيرتدعوا عن جهلهم ، ويزدجروا عن تكذيبهم حذر أن نأمر الأرض فنخسف بهم أو نأمر السماء فتسقط عليهم كسفا ، فإنا إن نشأ أن نفعل ذلك بهم فعلنا لكنا نؤخره لحلمنا وعفونا .

وإجمال ذلك — إنه تعالى ذكرهم بأظهر شىء لديهم يعاينونه حيثما وجدوا ، ولا يغيب عن أبصارهم حيثما ذهبوا ، وفيه الدليل على قدرته على البعث والإحياء ، فإن من قدر على خلق تلك الأجرام العظام لا تعجزه إعادة الأجسام ، فهى إذا قيست بها كانت كأنها لا شىء كما قال : « أَوَلَيْسَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ » .

وفى هذا ما لا يخفى من التنبيه إلى مزيد جهلهم المشار إليه بالضلال البعيد .

ثم ذكر ما هو كالعلة فى الحث على الاستدلال بذلك ، ليزيح إنكارهم بالبعث فقال :

(إن فى ذلك لآية لكل عبد منيب) أى إن فى النظر إلى خلق السموات والأرض لدلالة لكل عبد فطن منيب إلى ربه على كمال قدرتنا على بعث الأجساد ووقوع المعاد ، لأن من قدر على خلق هذه السموات على ارتفاعها واتساعها ، وعلى هذه الأرض على انخفاضها وطولها وعرضها — قادر على إعادة الأجسام ، ونشر

الرميم من العظام ، كما قال « لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَـكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ » .

وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

فضلا : أى نعمة وإحسانا ، أوّبى معه : أى رجّعى معه التسبيح وردّديه ، وألنا له الحديد : أى جعلناه فى يده كالشمَع والعجين يصرّفه كما يشاء من غير نار ولا طَرْق ، وسابغات من السبوغ وهو التمام والكمال : أى دروعا كاملات ، قدّر أى اقتصد ، والسرد : النسج : أى اجعل النسج على قدر الحاجة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن فى خلق السموات والأرض آية لكل من أناب إلى الله ورجع إليه ـ أردف ذلك بذكر بعض من أنابوا إلى ربهم فأنعم عليهم بما آتاهم من الفضل المبين ، ومن جملتهم داود عليه السلام فقد جمع الله له النبوة والملك والجنود ذوى المدد والعُدد ومنحه الصوت الرخيم ، فكان إذا سبح تسبح معه الجبال الراسيات ، وتقف له الطيور السارحات ، وعلمه سرد الدروع لتكون عُدّة للقاتلين وردْءا المجاهدين .

الإيضاح

(ولقد آتينا داود منا فضلا ياجبال أوبى معه والطير) أى ولقد أعطينا داود منا نعما ومننا فقلنا للجبال وللطير رجّعى معه التسبيح ورددّيه إذا سبح ، وذلك بأن تحمله عليه إذا تأمل عجائبها فهى له مذكرات كما يذكر المسبّح مسبحا آخر .

(وألنا له الحديد أن اعمل سابغات وقدر فى السرد) أى وجعلنا الحديد فى يده لينا يسهل تصويره وتصريفه كما يشاء ، فيعمل منه الدروع وآلات الحرب على أتم النظم وأحكم الأوضاع ، فيجعل حلقاتها على قدر الحاجة فلا هى بالضيقة فتضعف ولا تؤدى وظيفتها لدى الكر والفر والشد والجذب ، ولا هى بالواسعة التى ربما ينال صاحبها من خلالها الأذى ، وهنا تعليم من الله له فى إجادة نسج الدروع .

قال قتادة : إن داود أول من عملها حِلَقا وكانت قبل ذلك صفائح فكانت ثقالا .

(واعملوا صالحا) أى واعمل ياداود أنت وآلك بطاعة الله فأجازيكم كفاء ما عملتم .

ثم علل هذا الأمر بقوله :

(إنى بما تعملون بصير) أى إنى مراقب لكم بصير بأعمالكم وأقوالكم لا يخفى على شىء منها .

وفى هذا ما لا يخفى من التنبيه والإغراء بإصلاح العمل والإخلاص فيه .

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَنْ يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ، وَمَنْ يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ

وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَاسِيَاتٍ ، اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا ، وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ (١٣) .

شرح المفردات

غدوّها شهر : أى جريانها بالغداة مسيرة شهر ، ورواحها شهر : أى وجريانها بالعشى مسيرة شهر ، وأسلنا : أى أذبنا ، والقطر : النحاس المذاب ، ومن يزغ منهم عن أمرنا : أى ومن يعدل عن طاعة سليمان ، عذاب السعير : أى العذاب الشديد فى الدنيا ، والمحاريب واحدها محراب : وهو كل موضع مرتفع قال الشاعر :

وماذا عليه أنْ ذكرتُ أوانسا كغزلان رمل فى محاريبِ أقيالِ

والتماثيل : الصور ، والجفان واحدها جفنة : وهى القصعة ، والجوابى واحدها جابية : وهى الحوض الكبير ، وقدور : واحدها قدر ، وراسيات : أى ثابتات على أثافيها لاتتحرك ولا تنزل عن أماكنها لعظمها ، الشكور : الباذل وسعه فى الشكر قد شغل قلبه ولسانه وجوارحه به اعترافا واعتقادا وعملا .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه مامنّ به على داود من النبوة والملك - أردف ذلك بذكر ماتفضل به على ابنه سليمان من تسخير الريح ، فتجرى من الغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، ومن منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر ، وإذابة النحاس على نحو ما كان لداود من إلانة الحديد وتسخير الجن عَمَلة بين يديه يعملون له شتى المصنوعات من قصور شامخات وصور من نحاس وجفان كبيرة كالأحواض وقدور لاتتحرك لعظمها .

إذ كل منهما أناب إلى ربه وجال بفكره فى ملكوت السموات والأرض وكان من المؤمنين المخبتين الذين هم على ربهم يتوكلون .

الإيضاح

عدّد سبحانه ما أنعم به على سليمان عليه السلام وهو أمور :

(١) (ولسليمان الريح غدوها شهر ورواحها شهر) أى وسخرنا لسليمان الريح تجرى بالغداة إلى منتصف النهار مسيرة شهر ، وتجرى بالرواح من منتصف النهار إلى الليل مسيرة شهر .

قال قتادة تفسيرا للآية : كانت الريح تقطع به عليه السلام من الغدوّ إلى الزوال مسيرة شهر ومن الزوال إلى الغروب مسيرة شهر. وقال الحسن البصرى: كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصْطَخْر يتغدى بها، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابُل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كذلك .

(٢) (وأسلنا له عين القطر) أى وأذبنا له النحاس كما ألنا الحديد لداود ، فكان يعمل منه أعماله وهو بارد دون حاجة إلى نار ، وقد سال من معدنه فنبع نبوع الماء من الينبوع فلذلك سماه عينا .

(٣) (ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير) أى وسخرنا له من الجن من يبنى له البنايات وغيرها بقدرة ربه وتسخيره ، ومن يخرج منهم عن طاعته يذقه عذابا أليما فى الدنيا .

وإنا لنوقن بصدق ما جاء به القرآن من استخدام سليمان للجن ولا نعلم كيف كان يستخدمهم فى أعماله ، ولكن نشاهد آثار استخدامه لهم من المبانى الشاهقة والقصور العظيمة والتماثيل البديعة التى فصلها سبحانه بقوله :

(يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات) أى يعملون له مايشاء من القصور الشامخة والصور المختلفة من النحاس والزجاج والرخام ونحوها ، والجفان الكبيرة التى تكفى لعشرات الناس ، قال الأعشى يمدح آل جَفْنَةَ من الغساسنة بالشام :

نفى الذمَّ عن آل المُحَلَّق جفنةٌ كجابية الشيخ العِراقىّ تفهَقُ

القدور الثوابت فى أماكنها التى لاتتحرك ولا تتحول لكبرها وعظمها .

(اعملوا آل داود شكرا) أى وقلنا لهم : اعملوا يا آل داود بطاعة الله شكرا له على نعمه التى أنعمها عليكم فى الدين والدنيا . روى أن النبى صلى الله عليه وسلم صعد المنبر فتلا هذه الآية ثم قال « ثلاث من أوتيهن فقد أوتى مثل ما أوتى آل داود ، فقلنا ماهن ؟ فقال العدل فى الرضا والغضب ، والقصد فى الفقر والغنى ، وخشية الله فى السرّ والعلانية » أخرجه الترمذى .

والشكر كما يكون بالفعل يكون بالقول و يكون بالنية كما قال :

أفادتكم النعماء منى ثلاثة يدى ولسانى والضمير المحجبا

ثم ذكر السبب فى طلب الشكر منهم فقال :

(وقليل من عبادى الشكور) أى وقليل من عبادى من يطيعنى شكرا لنعمتى ، فيصْرِف ما أنعمت به عليه فيما يرضينى ، وقد قيل : الشكور من يرى عجزه عن الشكر .

ونحو الآية قوله : (إلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَاهُمْ) وعن عائشة رضى الله عنها « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الله حتى تَفَطَّرَ قدماه ، فقلت له : أتصنع هذا وقد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال أفلا أكون عبدا شكورا » خرجه مسلم فى صحيحه .

فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ (١٤) .

شرح المفردات

قضينا عليه : أى حكمنا عليه ، دابة الأرض : هى الأرضة (بفتحات) التى تأكل الخشب ونحوها، والمنسأة : العصا : من نسأت البعير إذا طردته ، قال الشاعر :

ضربنا بمنسأة وجهه فصار بذاك مهينا ذليلا

لأنها يطرد بها ، وخر : سقط ، وما لبثوا : أى ما أقاموا ، فى العذاب المهين : أى فى الأعمال الشاقة التى كلفوا بها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه عظمة سليمان وتسخيره الريح والجن ـ أردف ذلك ببيان أنه لم ينج أحد من الموت بل قضى عليه به ، تنبيها للخلق إلى أن الموت لابد منه ولو نجا منه أحد لكان سليمان أولى بالنجاة .

الإيضاح

إنا لما قضينا قضاءنا على سليمان بالموت فمات لم يدل الجن على موته إلا الأَرَضَة التى وقعت فى عصاه من داخلها ؛ إذ بينما هو متكئ عليها وقد وافاه القضاء المحتوم انكسرت فسقط على الأرض واستبان للجن أنهم لايعلمون الغيب كما كانوا يزعمون ، ولو علموه لما أقاموا فى الأعمال الشاقة التى كانوا يعملونها ظانين أنه حى .

والكتاب الكريم لم يحدد المدة التى قضاها سليمان وهو متوكئ على عصاه حتى علم الجن بموته ، وقد روى القصاصون أنها كانت سنة ، ومثل هذا لاينبغى الركون إليه ، فليس من الجائز أن خدم سليمان لايتنبهون إلى القيام بواجباته المعيشية من مأكل ومشرب وملبس ونحوها يوما كاملا دون أن يحادثوه فى ذلك ويطلبوا إليه القيام بخدمته ، فالمعقول أن الأرضة بدأت العصا وسليمان لم يتنبه لذلك ، وبينما

هو متوكئ عليها حانت منيته ، وكانت الأرضة قد فعلت فعلها فى العصا فانكسرت فخرّ على الأرض فعلمت الجن كذبها ، إذ كانت تدعى أنها تعلم الغيب ، إذ لو علمته مالبثت ترهق نفسها فى شاقّ الأعمال التى كلفت بها .

لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ (١٥) فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ (١٦) ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ (١٧) .

شرح المفردات

سبأ : هو سبأ بن يشجُب بن يعرُب بن قَحْطان ؛ والمراد به هنا القبيلة ، والمسكن: موضع السكنى وهو مأرب (كمنزل) من بلاد اليمن بينها و بين صنعاء مسيرة ثلاثة أيام ، آية : أى علامة دالة على وجود الله ووحدانيته وقدرته على إيجاد الغرائب والعجائب ، جنتان : أى بستانان ، فأعرضوا : أى انصرفوا عن شكر هذه النعم ، والعرم : واحدها عرمة ؛ وهى الحجارة المركومة كخزان أُسوان فى وادى النيل لحجز المياه جنوبى النيل ، وكانت له ثلاثة أبواب بعضها فوق بعض ، والمطر يجتمع أمام ذلك السد ، فيسقون من الباب الأعلى ثم الذى يليه ثم من الأسفل ، والأكل : الثمر ، والخمط : كل شجرة مرة ذات شوك ، والأثل : الطرفاء؛ وهو المعروف فى مصر (بالأتل) والسدر : شجر النبق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جل وعلا حال الشاكرين لنعمه المنيبين إليه ـ أعقب ذلك بذكر ما حل بالكافرين بنعمه ، المعرضين عن ذكره وشكره من عظيم العقاب ، موعظة لقريش وتحذيرا لمن يكفر بالنعم ويعرض عن المنعم .

الإيضاح

(لقد كان لسبإ فى مسكنهم آية جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور) أى لقد كان أهل هـذا الحى من ملوك اليمن فى نعمة عظيمة وسعة فى الرزق ، وكانت لهم حدائق غناء وبساتين فيحاء عن يمين الوادى وشماله ، وقد أرسل الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزق ربهم ويشكروه بتوحيده وعبادته كفاء ما أنعم عليهم بهذه المنن ، وأحسن إليهم بتلك النعم ، فكانوا كذلك إلى حين ، ثم أعرضوا عما أمروا به فعوقبوا بإرسال السيل عليهم فتفرقوا فى البلاد شذَرَ مَذَرَ ، وهذا ما عناه سبحانه بقوله :

(فأعرضوا فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشىء من سدر قليل) أى فأعرضوا عن طاعة ربهم وصدوا عن اتباع ما دعتهم إليه الرسل فأرسل الله عليهم سيلا كثيرا ملأ الوادى وكسر السدّ وخربه وذهب بالجنان والبساتين وأهلك الحرث والنسل ، ولم يبق منهم إلا شراذم قليلة تفرقت فى البلاد ، وبدلوا من تلك الجنان والبساتين التى سبق وصفها بساتين ليس فيها إلا بعض أشجار لايؤبه بها كالخمط والأثل وقليل من النبق .

ثم بين سبب ذلك العقاب بقوله :

(ذلك جزيناهم بما كفروا وهل نجازى إلا الكفور) أى وجازيناهم ذلك الجزاء الفظيع من جَرَّاء كفرهم بربهم وجحودهم بنعمه ، وتكذيبهم بالحق ، وعدولهم

عنه إلى الباطل ، وما نجازى مثل هذا الجزاء الشديد المستأصل إلا عظيم الـكفران للنعم ، الجحود للفضل والمنن .

سد مأرب — سد العرم

وصف هـذا السد مؤرخو العرب فى عصور مختلفة . وأصدق من أجاد وصفه الهمدانى فى كتابه (وصف جزيرة العرب) قال : فى الجنوب الغربى من مأرب سلسلة جبال هى شعاب من جبل السراة الشهير ، تمتد مئات الأميال نحو الشرق الشمالى ، و بين هذه الجبال أودية تصب فى واد كبير يعبر عنه العرب بالميزاب الشرقى وهو أعظم أودية الشرق ، وشعاب هذه المواضع وأوديتها إذا أمطرت السماء تجمعت فيها السيول وانحدرت حتى تنتهى أخيرا إلى وادى آذنة ، وهو يعلو سطح البحر بنحو ١١٠٠ متر ، وتسير فيه المياه نحو الشرق الشمالى حتى تنتهى إلى مكان قبل مأرب بثلاث ساعات ، هو مضيق بين جبلين يقال لكل منهما بلق ، أحدهما بلق الأيمن وثانيهما بلق الأيسر والمسافة بينهما ستمائة ذراع يجرف السيل الأكبر بينهما من الغرب الجنوبى إلى الشرق الشمالى فى وادى أذنة .

وقد اختار السبئيون المضيق بين جبلى بلق و بنوا فى عرضه سورا عظيما عرف بسد مأرب أو بسد العرم ، لأنه لا أنهار عندهم ، و إنما يستقى أهلها من السيول التى تتجمع من المطر ، وقد كان يذهب أكثرها فى الرمال ، فإذا انقضى فصل المطر ظمئوا وجفت أغراسهم ، ور بما فاض المطر فسطا على المدن والقرى فنالهم منه أذى كثير .

و بين المضيق ومدينة مأرب متسع من الأرض تبلغ مساحة ما يحيط به من الأرض من سفوح وجبال نحو ٣٠٠٠ ميل مر بع كانت صحراء جرداء قاحلة فأصبحت بعد تدبير المياه بالسـد غياضا و بساتين على سفحى الجبلين وهى المعبر عنها بالجنتين الجنة اليمنى والجنة اليسرى اه بتصرف .

وقد ظل الباحثون والمنقبون فى العصر الحديث فى شك من أمر هذا السد حتى

تمكن المستعرب الفرنسى أرنو من الوصول إلى مأرب سنة ١٨٤٣ وشاهد آثاره ورسم له مصورا نشر فى المجلة الفرنسية سنة ١٨٧٤ وزار مأرب بعده هاليفى وغلازر ووافقاه فيما قال وصادقاه فيما وصف وهو يطابق من وجوه كثيرة ما قاله الهمدانى فى كتابه ثم عثروا فيما بعد على نقوش كتابية فى خرائب السد وغيرها تحققوا بها صدق خبره .

قال الأصفهانى : إن السد تهدم قبل الإسلام بنحو أربعمائة سنة ، وقال ياقوت : إنه هدم فى نحو القرن السادس للميلاد ، وقال ابن خلدون : إنه تهدم فى القرن الخامس للميلاد .

وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ، سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ (١٨) فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (١٩) .

شرح المفردات

القرى التى بارك فيها : هى قرى الشام ، قرى ظاهرة : أى مرتفعة على الآكام وهى أصح القرى ، وقدرنا فيها السير : أى كانت القرى على مقادير للراحل ، فمن سار من قرية صباحا وصل إلى أخرى حين الظهيرة ، ومن سار من بعد الظهر وصل إلى أخرى حين الغروب ، فلا يحتاج إلى حمل زاد ولا مبيت فى أرض خالية ولا يخاف من عدوّ ولا سبع ، آمنين : أى من كل ما تكرهون ، وظلموا أنفسهم لأنهم بطروا النعمة ، والأحاديث : واحدها أحدوثة وهى ما يتحدث به على سبيل التلهى والاستغراب ، ومزقناهم كل ممزق : أى وفرقناهم كل تفريق ، الصبّار : كثير الصبر

عن الشهوات ودواعى الهوى وعلى مشاق الطاعات ، والشكور : أى كثير الشكران على النعم .

المعنى الجملى

بعد أن حكى سبحانه ما أوتوا من النعم فى مساكنهم ثم كفرانهم بها وما جوزوا به من الخراب والدمار ـ قص علينا ما أعطوه من النعم فى مسايرهم ومتاجرهم ، ثم جحودهم بها ثم ما حاق بهم بسبب ذلك .

الإيضاح

(وجعلنا بينهم و بين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة) أى وجعلنا بين قراهم وقرى الشام التى باركنا فيها بالتوسعة على أهلها قرى متواصلة يظهر بعضها لبعض ، لأنها مبنية على آكام عالية .

(وقدرنا فيها السير) أى وجعلنا بين بعضها و بعض مقادير متناسبة بحيث يقيل الغادى فى قرية ، و يبيت الرائح فى أخرى إلى أن يصل إلى الشام وهو لايحمل معه زادا ولا ماء .

(سيروا فيها ليالى وأياما آمنين) أى وقلنا لهم سيروا فى هـذه القرى التى بين قراكم وقرى الشام التى باركنا فيها ليالى وأياما وأنتم آمنون لاتخشون جوعا ولا عطشا ولا عدوّا يبطش بكم ، بل تغدون فتقيلون ، وتروحون فتبيتون فى قرية ذات جنان ونهر .

وخلاصة هذا — إنهم كانوا فى نعمة وغبطة وعيش هنئ رغد فى بلاد مرضية وأماكن آمنة وقرى متواصلة ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ؛ فالمسافر لايحتاج إلى حمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، فهو يقيل فى قرية و يبيت فى أخرى بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم .

ثم ذكر أنهم بطروا وملّوا تلك النعم وآثروا الذى هو أدنى على الذى هو خير كما فعل بنو إسرائيل فطلبوا أن يُفصل بين القرى بمفاوز وقفار، ليُظهر القادرون منهم الأزواد والرواحل تكبرا وفخرا على العاجزين كما حكى سبحانه عنهم بقوله :

(فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا) فاجعل بيننا و بين الشام فلوات ومفاوز ، لنركب فيها الرواحل ، ونتزود معنا فيها الأزواد ، فأجاب الله طلبهم وعاقبهم على بطرهم بالنعمة كما قال :

(وظلموا أنفسهم) إذ قد عرّضوها للسخط والعــذاب بغمط النعمة وعدم الوفاء بشكرها .

ثم ذكر عاقبة أمرهم فقال :

(فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق) أى فجعلناهم أحاديث للناس يتسامرون بها و يعتبرون بأمرهم، وكيف مكر الله بهم وفرّق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىّ وصاروا مضرب الأمثال فقيل للقوم يتفرقون ؟ تفرقوا أيدى سبا ، فنزل آل جفنة ابن عمرو الشام ، ونزل الأوس والخزرج يثرب ، ونزلت أزْد السَّراة السَّراة ، ونزلت أزد عمان عُمانًا ثم أرسل الله على السد السيل فهدمه .

(إن فى ذلك لآيات لكل صبار شكور) أى إن فى ذلك الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب بعد النعمة والعافية عقوبة لهم على ما اجترحوه من الآثام ــ لعبرة لكل عبد صبار على المصايب ، شكور على النعم .

روى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عجبت من قضــاء الله تعالى للمؤمن إن أصابه خير حمد ربه وشكر ، وإن أصابته مصيبة حمد ربه وصبر ، يؤجر المؤمن فى كل شىء حتى اللقمة يرفعها إلى فى امرأته » وكان مُطَرِّف بن الشِّخِّير يقول : نعم العبد الصبار الشكور الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابْتُلِى صبر .

وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٠) وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ، وَرَبُّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ (٢١) .

شرح المفردات

صدق عليهم إبليس ظنه : أى وجد ظنه فيهم صادقا ، لانهما كهم فى الشهوات واستفراغ الجهد فى اللذات ، سلطان : أى تسلط واستغواء بالوسوسة ، حفيظ : أى وكيل قائم على شئون خلقه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر جلت قدرته قصص سبأ ، وما كان من أمرهم فى اتباع الهوى والشيطان ــ أردف ذلك بالإخبار بأنهم صدقوا ظنّ إبليس فيهم وفى أمثالهم ممن ركنوا إلى الغواية والضلال ، إذ تسلط عليهم وانقادوا إلى وسوسته ، وبذا امتازوا من فريق المؤمنين الذين لاسلطان للشيطان عليهم كما قال سبحانه : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

الإيضاح

(ولقد صدّق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين) أى ولقد ظن إبليس بهؤلاء الذين بدلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط عقوبة منا لهم ــ ظنا غير يقين أنهم يتبعونه ويطيعونه فى معصية الله ، وحين أغواهم وأطاعوه وعصوا ربهم تحقق صدق ظنه فيهم ، إلا فريقا من المؤمنين ثبتوا على طاعة الله ومعصية إبليس .

ثم ذكر أنه ابتلاهم ليظهر حال المؤمنين من حال الشاكين فى الآخرة فقال :

(وما كان له عليهم من سلطان إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو منها فى شك) أى وما كان لإبليس على هؤلاء القوم من حجة يضلهم بها ، ولكنا أردنا ابتلاءهم واختبارهم ليظهر حال من يؤمن بالآخرة ويصدّق بالثواب والعقاب ممن هو منها فى شك ، فلا يوقن بمعاد ، ولا يصدق بثواب ولا عقاب .

قال الحسن البصرى : والله ماضربهم بعصا، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانىّ دعاهم إليها فأجابوه .

وخلاصة ذلك : لاسلطان لإبليس على قلوب الناس ، ولكنى أسلطه عليهم كما أسلط الذباب على العيون القذرة ، والأوبئة على البلاد التى لم يراع أهلها شروط النظافة فى مساكنهم وملابسهم ومآكلهم ، ولا أفعل ذلك إلا لحكمة ، فإذا حل الوباء بأرض مات من لاقدرة له على مقاومة جراثيم الأمراض وبقى من هو قادر على المقاومة ولديه قوة المناعة ، وهكذا وسوسة الشيطان يفرق الله بها بين الثابت العقيدة والمتزلزلها ، ومن انقاد لها فلا يلومنّ إلا نفسه وهو المذنب وحده ، وهكذا جميع حوادث الدنيا من مصايب وآلام يثبت لها ذوو العزيمة الصادقة ، ولا يضطرب حين حلولها إلا الضعيف الذى ليس له جلد ولا صبر .

(وربك على كل شىء حفيظ) أى وربك أيها الرسول حفيظ على أعمال هؤلاء الكفار وغيرهم ، لايعزب عن علمه شىء ، وهو يجازيهم جميعا يوم القيامة بما كسبوا فى الدنيا من خير أو شر ، فمن أخبت لله وأناب إليه لاقى من الثواب مالاعين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، ومن دسّى نفسه الأمارة بالسوء وانهمك فى شهواته لاقى من سوء الجزاء كفاء أعماله نارا تلظى لايصلاها إلا الأشقى الذى كذب وتولى .

قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لاَيَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ

ظَهِيرٍ (٢٢) وَلاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا ؟ قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) .

شرح المفردات

ادعوا : أى نادوا ، زعمتم : أى زعمتموهم آلهة ، من شرك : أى شركة، والظهير: المعين، والتفزيع: إزالة الفزع؛ وهو انقباض ونفار يعترى الإنسان من الشيء المخيف.

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عزت قدرته ما آتاه الشاكرين من أوليائه كداود وسليمان من النعم التى لاحصر لها ، وما فعله بسبأ حين بطروا النعمة وكذبوا الرسل ـ أعقب ذلك بأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقول للمشركين من قومه تهكما بهم وتعجبا من حالهم : ادعوا آلهتكم الذين زعمتموهم شركاء لله ، فسلوهم أن يفعلوا بكم بعض أفعالنا بمن وصفنا أمرهم من إنعام أو انتقام ، فإن لم يستطيعوا ذلك فاعلموا أنهم مبطلون .

ثم ذكر أن شأن المعبود أن يكون نافعا للعابد يخشى بطشه وسطوته ، وهؤلاء ليس لهم شيء من ذلك ،إذ لاتصرف لهم فى شيء فى السموات والأرض لا استقلالا ولا شركة ، ولا هم معينون للخالق فيهما ، ولا تنفع شفاعتهم لديه ، فكيف تتقربون إليهم وتعبدونهم رجاء نفعهم بعد الذى علمتم من أمرهم .

الإيضاح

(قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين من قومك موبخا لهم ومبينا لهم سوء ما يصنعون : ادعوا هؤلاء الأصنام فى مهامّ أموركم ليدفعوا الضر عنكم أو يجلبوا النفع لكم ، لعلهم يستجيبون لكم إن كان ذلك فى مُكْنتهم و بيدهم مقاليد أموركم .

ثم أبان لهم عظيم خطئهم وكبير جرمهم فقال :

(لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض) أى هؤلاء الآلهة لايملكون مثقال ذرة فى السموات ولا فى الأرض من خير أو شر ، فكيف يكونون آلهة يرجى معهم نفع أو يخشى منهم ضر .

ونحو الآية قوله : « وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ » .

(وما لهم فيهما من شرك) أى ولا هم يملكون مثقال ذرة فيهما على سبيل الشركة ، والمراد أنهم لايملكون شيئا لاعلى سبيل الاستقلال ولا على سبيل الشركة للخالق لهما .

(وما له منهم من ظهير) أى وما لله من الآلهة التى يدعون من دونه ــ معين على خلق شىء من ذلك ، ولا على حفظه .

(ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له) أى ولا تنفعهم شفاعتهم عنده تعالى ، إذ لاشفاعة عنده إلا لمن أذن له أن يشفع ، وهو لايأذن أحدا أن يشفع لهؤلاء الكافرين كما قال تعالى : « لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا » . والشفاعة لمثل هؤلاء لا تكون أبدا .

ثم ذكر ما يحدث بعد انتظار الإذن بالشفاعة فقال :

(حتى إذا فزّع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم ؟ قالوا الحق) أى يقف الناس منتظرين الإذن بالشفاعة وجلين حتى إذا أذن للشافعين وأزيل الفزع عن قلوب المنتظرين قال بعضهم لبعض ماذا قال ربكم فى الإذن بالشفاعة ؟ قالوا قال ربنا القول الحق ، وهو الإذن بالشفاعة لمن ارتضى .

والآيات تدل على أن المشفوع لهم هم المؤمنون ، والكافرون بمعزل عن موقف الاستشفاع .

والخلاصة ــ إن الشفاعة لاتنفع فى حال إلا لشافع أذن له فيها من النبيين

والملائكة ونحوهم من المستأهلين لمقام الشفاعة، ثم ذكر اعتراف الشفعاء بعظمة خالق الكون وقصور كل ما سواه فقال :

(وهو العلى الكبير) أى وهو جل شأنه المتفرد بالعلو والكبرياء لايشاركه فى ذلك أحد من خلقه ، وليس لأحد منهم أن يتكلم إلا من بعد إذنه .

وفى هذا تواضع منهم بعد أن رفع سبحانه أقدارهم بالإذن لهم بالشفاعة ، وفيه أيضا ثناء على الله كما لايخفى .

قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ، وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَى هُدًى أَوْ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ (٢٤) قُلْ لَا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ (٢٦) قُلْ أَرُونِىَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُمْ بِهِ شُرَكَاءَ ، كَلَّا بَلْ هُوَ اللهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢٧) .

شرح المفردات

أجرمنا : أى وقعنا فى الجرم، وهو الذنب ، ويفتح : أى يحكم ، والفتاح : الحاكم، أرونى الذين ألحقتم به شركاء : أى أعلمونى بالدليل وجه الشركة ، كلا: كلمة للزجر عن كلام أو فعل صدر من المخاطب .

المعنى الجملى

بعد أن سلب سبحانه عن شركائهم ملك شىء من الأكوان ، وأثبت أن ذلك له وحده ـ أمر نبيه أن يجعلهم يقرون بتفرده بالخلق والرزق وانفراده بالإلهية ، وأن يخبر بأن أحد الفريقين الموحدين للرازق والمشركين به الجماد ـ مبطل والآخر

محق ، وقد قام الدليل على التوحيد فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك ، وأن يقول لهم : لاتؤاخذون بما نعمل ولا نؤاخذ بما تعملون ، وأن يقول لهم : إن ربنا هوالذى يحكم بيننا يوم القيامة وهوالحكيم العليم بجلائل الأمور ودقائقها ، وأن يقول لهم : أعلمونى عما ألحقتم به من الشركاء ، هل يخلقون وهل يرزقون ؟ كلا بل الله هو الخالق الرازق الغالب على أمره ، الحكيم فى كل ما يفعل .

الإيضاح

(قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المشركين بربهم الأوثان والأصنام : من يرزقكم من السموات بإنزال الغيث عليكم، حياة لحروثكم وصلاحا لمعايشكم ، وتسخير الشمس والقمر والنجوم لمنافعكم ــ ومن الأرض بإخراج أقواتكم وأقوات أنعامكم ؟

فإن هم قالوا لاندرى فأجبهم :

(قل الله) هو الذى يرزقكم ، إذ لاجواب عندهم سواه فى قرارة أنفسهم ، إلا أنهم ربما أبوا أن يتكلموا به عنادا مع علمهم بصحته ، ولأنهم لو تفوّهوا به لقيل لهم : فما لكم لاتعبدون من يرزقكم وتؤثرون عليه من لايقدر على الرزق ؟ كما قال سبحانه تبكيتا لهم : « قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعاً وَلاَ ضَرًّا ؟ » .

ثم أمر رسوله أن يقول لهم بعد الإلزام الذى ليس بأقل من الاعتراف بأنفسهم.

(وإنا أو إياكم لعلى هدى أو فى ضلال مبين) أى وإن أحد الفريقين منا معشر الذين يوحدون الرازق لمن فى السموات والأرض ويفردونه بالعبادة ، والذين يشركون به الجماد العاجز عن دفع الضر وجلب النفع ــ لعلى الهدى أو فى الضلال المبين الذى لاشك فيه .

وهـذا أسلوب من الكلام المنصف تستعمله العرب فى محاوراتها لإرخاء العنان للمخاطب حتى إذا سمعه الموافق أوالمخالف قال لمن خوطب به لقد أنصفك صاحبك .

ألا ترى الرجل يقول لصاحبه : قد علم الله الصادق منى ومنك ، وإن أحدنا لكاذب ، وعليه قول حسان يخاطب أبا سفيان بن حرب وكان قد هجا رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يسلم :

أتهجوه ولست له بكفء فشركما لخـيركما الفداء

وفى ذكر هذا بعد ما تقدمه من الحجج الظاهرة على التوحيد ، دلالة واضحة على تمييز المهتدى من الضالّ ، والإيماء أبلغ من التصريح وأوصل بالمجادل إلى الغرض مع قلة شغب الخصم وفل شوكته بالهوينى .

ثم زاد فى إنصافهم فى المخاصمة ، فأسـند الإجرام إلى أنفسهم والعمل للمخاطبين فقال :

(قل لاتسألون عما أجرمنا ولا نسأل عما تعملون) أى قل لهؤلاء المشركين : أنتم لاتسألون عما اكتسبنا من الآثام وارتكبنا من الذنوب ، ونحن لا نسأل عما تعملون من عمل ـ خيرا كان أو شرا .

ونحو الآية قوله : « فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقُلْ لِي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ ، أَنْتُمْ بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تَعْمَلُونَ » .

ثم حذرهم وأنذرهم عاقبة أمرهم إذ أمر رسوله أن يقول لهم :

(قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم) أى قل لهم : إن ربنا يوم القيامة يجمع بيننا حين الحشر والحساب ثم يقضى بيننا بالعدل بعد ظهور حال كل منا ومنكم ، وهو الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور ، وهنالك يجزى كل عامل بما عمل ، إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية كما قال : « وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ .

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ» .

ثم استفسر عن شبهتهم بعد إلزامهم الحجة تبكيتا لهم فقال :

(قل أرونى الذين ألحقتم به شركاء) أى قل لهم : ما الذى عراكم ودخل فى أذهانكم من الشبه حتى جعلتم هؤلاء أندادا لله وشركاء ، و بأى صفة ألحقتموهم به فى استحقاق العبادة ؟

ثم نبه إلى فاحش غلطهم وعظيم خطئهم بقوله :

(كلا، بل هو الله العزيز الحكيم) أى ليس الأمر كما وصفتم، فلا نظير له تعالى ولا ندّ ، بل هو الله الواحد الأحد ذو العزة التى بها قهر كل شىء ، وهو الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وفيما شرع لهم من الدين الحق الذى يسعد من اعتنقه فى حياتيه الأولى والآخرة .

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٢٨) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٢٩) قُلْ لَكُمْ مِيعَادُ يَوْمٍ لَا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ (٣٠) .

المعنى الجملى

بعد أن أقام الأدلة على التوحيد وضرب لذلك الأمثال حتى لم يبق بعدها زيادة لمستزيد ــ شرع يذكر الرسالة و يبين أنها عامة للناس جميعا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون فيحملهم ذلك على مخالفتك ، ثم ذكر سؤال منكرى البعث عن الساعة استهزاء بها ، ثم أعقب ذلك بالتهديد والوعيد لما يكون لهم فيها من شديد الأهوال .

الإيضاح

(وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا) أى وما أرسلناك إلى قومك خاصة ، بل أرسلناك إلى الخلق جميعا عربهم وعجمهم أسودهم وأحمرهم ، مبشرا من أطاعنى بالثواب العظيم ، ومنذرا من عصانى بالعذاب الأليم .

ونحو الآية قوله : « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعاً » وقوله : « تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا » .

(ولكن أكثر الناس لا يعلمون) ذلك فيحملهم جهلهم على الإصرار على ما هم فيه من الغى والضلال .

ونحو الآية قوله : « وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ » وقوله : « وَإِنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ » .

(ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين) أى ويقولون استهزاء لفرط تعنتهم وجهلهم : متى هذا الذى توعدوننا به مبشرين ومنذرين إن كنتم أيها الرسول والمؤمنين صادقين فيما تقولون .

ونحو الآية قوله : « يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ » .

ثم أمر رسوله أن يجيبهم عن سؤالهم فقال :

(قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون) أى قل لهم أيها الرسول إن لكم ميعاد يوم هو آتيكم لا محالة ، لا تستأخرون عنه ساعة إذا جاء فتنظروا للتوبة والإنابة ولا تستقدمون قبله للعذاب ، لأن الله جعل لكم أجلا لا تعدونه .

والخلاصة — دعوا السؤال عن وقت مجىء الساعة ، فإنه كائن لا محالة ، وسلوا عن أحوال أنفسكم حين تكونون مبهوتين متحيرين من هول ما تشاهدون فهذا أليق بكم .

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ (٣١) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ (٣٢) وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا ، وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٣٣) .

المعنى الجملى

لما ذكر الأصول الثلاثة وهى التوحيد والرسالة والحشر وكانوا كافرين بها جميعا ـ ذكر شأن جماعة من المشركين جاهروا بإنكار القرآن وبكل كتاب سبقه من الكتب السماوية السالفة، ويستتبع ذلك أنهم لا يؤمنون بما جاء فيها من البعث والحشر والحساب والجزاء، ثم ذكر ما سيكون من الحوار بين الضالين ومضليهم من الكفار وما يسرونه من الحسرة والندامة حين يرون العذاب ، ثم أعقبه بذكر ما سيحيق بهم من الإهانة بوضع الأغلال فى الأعناق ، وأن هذا جزاء لهم على ما عملوا من سيئ الأعمال ، وما دسّوا به أنفسهم من قبيح الخلال .

الإيضاح

(وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه) أى وقال مشركو العرب : لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالكتب التى سبقته ، ولا بما اشتملت

عليه من أمور الغيب التى تتصل بالآخرة من بعث وحساب وجزاء .

روى أن كفار مكة سألوا أهل الكتاب عن وصف الرسول صلى الله عليه وسلم فأخبروهم أنهم يجدون صفته فى كتبهم فأغضبهم ذلك وقالوا ما قالوا :

ثم ذكر ما يكون من حوار بين ضاليهم ومضليهم حين الوقوف بين يدى الملك الديان للحساب والجزاء فقال :

(ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول) أى ولو ترى أيها الرسول حال أولئك الكافرين وما هم فيه من مهانة وذلة ، يحاور بعضهم بعضا و يتلاومون على ما كان بينهم من سوء الأعمال والسبب فيمن أوقعهم فى هذا النكال والوبال — لرأيت العجب العاجب والمنظر المخزى الذى يستكين منه المرء خجلا .

ثم فصل ذلك الحوار فقال :

(يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين) أى يقول الأتباع للذين استكبروا فى الدنيا واستتبعوهم فى الغى والضلال ، لولا أنتم أيها السادة صددتمونا عن الهدى لكنا مؤمنين بما جاء به الرسول .

ثم حكى سبحانه رد الرؤساء عليهم بقوله :

(قال الذين استكبروا للذين استضعفوا:أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذجاءكم ؟ بل كنتم مجرمين) أى قال الذين استكبروا فى الدنيا وصاروا رؤساء فى الكفر والضلالة للذين استضعفوا فكانوا أتباعا لأهل الضلال منهم : أنحن منعناكم من اتباع الحق بعد أن جاءكم من عند الله ؟ بل أنتم منعتم أنفسكم حظها بإجرامكم و إيثاركم الكفر على الإيمان .

والخلاصة — إننا لم نَحُلْ بينكم و بين الإيمان لو صممتم على الدخول فيه ، بل كنتم مجرمين ، فمنعكم إيثاركم الكفر على الإيمان من اتباع الهدى .

ثم حكى رد المستضعفين على قول المستكبرين بقوله :

(وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا) أى وقال الأتباع للرؤساء فى الضلال : صدنا مكركم بنا وخداعكم فى الليل والنهار حين كنتم تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أمثالا وأشباها فى العبادة.

وإجمال ذلك — ما صدنا إلا مكركم أيها الرؤساء بالليل والنهار حتى أزلتمونا عن عبادة الله ، فأنتم كنتم تغروننا وتمنوننا وتخبروننا أننا على الهدى وأنا على شىء ، كل ذلك باطل وكذب .

ثم ذكر مآل أمرهم وسوء عاقبتهم فقال :

(وأسروا الندامة لما رأوا العذاب) أى وأضمر كل من الفريقين المستكبرين والمستضعفين ـ الندم على ما فرط منهم فى الدنيا حين رأوا العذاب ، إذ هم بهتوا مما عاينوا فلم يستطيعوا أن ينطقوا ببنت شفة .

والخلاصة — إنهم ندموا على ما فرّطوا من طاعة الله فى الدنيا حين شاهدوا عذابه الذى أعده لهم .

(وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا) أى وجعلنا أغلال الحديد فى أعناق هؤلاء فى النار .

ثم ذكر أنه لاجزاء لأمثالهم إلا هذا فقال :

(هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) أى وما يفعل ذلك بهم إلا جزاء لما اجترحوا من الكفر والآثام « وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » وقد قالوا فى أمثالهم : إنك لاتجنى من الشوك العنب .

وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ (٣٤) وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ

لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ (٣٨) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ ، وَمَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٣٩) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر قول المشركين لرسوله لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذى بين يديه بعد أن طال به الأمد فى دعوتهم حتى لحقه من ذلك الغم الكثير كما قال : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » ـ سلاه مما ابتلى به من مخالفة مترفى قومه له وعداوتهم إياه آمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، فإنه ليس بدعا من بينهم ، فما من نبى بعث فى قرية إلا كذبه مترفوها واتبعه ضعفاؤها كما قال : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا »

ثم ذكر حجتهم بأنهم لاحاجة لهم إلى الإيمان به ، فما هم فيه من مال وولد برهان ساطع على محبة الله إياهم ، فرد عليهم بأن بسط الرزق وتقتيره كما يكون للبرّ يكون للفاجر ، لأن ذلك مرتبط بسنن طبيعية وأسباب قدرها سبحانه فى هذه الحياة ، فمن أحسن استعمالها استفاد منها ؛ ثم ذكر أن المتقين يتمتعون إذ ذاك بغرف الجنان وهم فى أمن ودعة ، وأن الذين يصدون عن سبيل الله فى نار جهنم يصلونها أبدا ، ثم وعد المنفقين فى سبيل الله بالإخلاف ، وأوعد الممسكين بالإتلاف .

الإيضاح

(وما أرسلنا فى قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون) أى وما بعثنا إلى أهل قرية نذيرا ينذرهم بأسنا أن ينزل عليهم على معصيتهم إيانا إلا قال

كبراؤها وأولو النعمة والثروة فيها : إنا لانؤمن بما بعثتم به من التوحيد والبراءة من الآلهة والأنداد .

وليس فى ذلك من عجب ، فإن المنغمسين فى الشهوات يحملهم التكبر والتفاخر بزينة الحياة الدنيا على النفور من الكمال الروحى ، ومن تثقيف النفوس بالإيمان والحكمة ، فالضدان لايجتمعان : انغماس فى الشهوة وعلم وحكمة ، ثروة مادية وثروة روحية .

ثم ذكر تفاخرهم بما هم فيه من بسطة العيش ، وكثرة الولد وأن ذلك سيكون سبب نجاتهم من العذاب فى الآخرة بقوله :

(وقالوا نحن أكثر أموالا وأولادا وما نحن بمعذبين) أى وقال المستكبرون فى كل قرية أرسلنا فيها نذيرا : إنا ذوو عدد عديد من الأولاد وكثرة فى الأموال فنحن لانعذب ، لأن ذلك دليل على محبة الله لنا ، وعنايته بنا ، وأنه ما كان ليعطينا ما أعطانا ثم يعذبنا فى الآخرة .

هيهات هيهات ، إنهم قد ضلوا ضلالا بعيدا ، وأخطئوا القياس « أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِى الْخَيْرَاتِ » .

وخلاصة آرائهم — نحن فى نعمة لاتشوبها نقمة ، وذلك دليل على كرامتنا عند الله ورضاه عنا ، إذ لو كان ما نحن فيه من الشرك وغيره مما تدعوننا إلى تركه ـ مخالفا لما يرضيه ـ لما كنا فيما نحن فيه من نعمة و بسطة فى العيش وكثرة الأولاد .

فرد الله عليهم مقالتهم آمرا رسوله أن يبين لهم خطأهم بقوله :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يبسط الرزق من معاش ورياش فى الدنيا لمن يشاء من خلقه ويضيق على من يشاء ، لا لمحبة فيمن بُسط له ذلك ، ولا لخير فيه ولا زلفى استحق بها ذلك ، ولا لبغض منه لمن قُدِر عليه ولا لمقت منه له ، ولكنه يفعل ذلك لسنن وضعها

لكسب المال فى هذه الحياة ، فمن سلك سبيلها وصل إلى ماينبغى . ومن أخطأها وضل لم ينل شيئا من حظوظها ؛ ولا رابطة بين الثراء ومحبة الله ، ألا ترى أنه ربما وسع سبحانه على العاصى وضيق على المطيع ، وربما عكس الأمر ، وقد يوسع على المطيع أو العاصى تارة ويضيق عليهما أخرى - يفعل كل ذلك على حسب ما اقتضته مشيئته المبنية على الحكم البالغة التى قد نعلمها وربما خفى علينا أمرها ، ولو كان البسط دليل الإكرام والرضا لاختص به المطيع ، ولو كان التضييق دليل الإهانة لاختص به العاصى ، ومن ثم جاء قوله صلى الله عليه وسلم « لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما أعطى الكافر منها شيئا » .

(ولكن أكثر الناس لايعلمون) أن الله يفعل ذلك على حسب السنن التى وضعها فى الكون ، بل يظنون أن ذلك لمحبة منه لمن بسط له ، ومقت منه لمن قُدِر عليه، حتى تحير بعضهم واعترض على الله فى البسط لأناس والتضييق منه على آخرين ومن ثَمَّ قال :

كم عاقل عاقل أعيت مذاهبه　　وجاهل جاهل تلقاه مرزوقا

هذا الذى ترك الأوهام حائرة　　وصيَّر العالم النحرير زنديقا

ثم بين سبحانه لعباده أن الزلفى عنده ليست بكثرة المال والولد ، بل بالتقوى وصالح العمل ، فقال :

(وما أموالكم ولا أولادكم بالتى تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم فى الغرفات آمنون) أى وما أموالكم التى تفتخرون بها على الناس ، ولا أولادكم الذين تتكبرون بهم بالتى تقربكم منا ، لكن من آمن وعمل صالحا فإيمانهم وعملهم يقربانهم منى ، وأولئك أضاعف لهم ثواب أعمالهم فأجازيهم بالحسنة عشر أمثالها أو أكثر إلى سبعمائة ضعف ، وهم فى غرفات الجنات آمنون من كل خوف وأذى ومن كل شر يحذر منه .

روى عن على كرم الله وجهه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إن فى الجنة لغرفا ترى ظهورها من بطونها و بطونها من ظهورها ، فقال أعرابى لمن هى ؟ قال : لمن طيَّب الكلام ، وأطعم الطعام ، وأدام الصيام ، وصلى بالليل والناس نيام » .

ثم بين حال المسىء الذى يبعده ماله وولده من الله فقال :

(والذين يسعون فى آياتنا معاجزين فأولئك فى العذاب محضرون) أى والذين يصدون عن آيات كتابنا بالطعن فيها يبتغون إبطالها ، و يريدون إطفاء أنوارها ظانين أنهم يفوتوننا وأننا لن نقدر عليهم ، فأولئك فى عذاب جهنم يوم القيامة تحضرهم الزبانية إليها ولا يجدون عنها محيصا ، ولا يجديهم نفعا ما عوّلوا عليه من شفاعة الأصنام والأوثان .

ثم زهد عباده فى الدنيا وحضهم على التقرب إليه بالإنفاق فقال :

(قل إن ربى يبسط الرزق لمن يشاء من عباده و يقدر له) أى قل لهم أيها الرسول : إن ربى يوسع الرزق على من يشاء من عباده حينا و يضيقه عليه حينا آخر، فلا تخشوا الفقر وأنفقوا فى سبيل الله وتقربوا إليه بأموالكم لتنالكم نفحة من رحمته .

(وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) أى وما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم فهو يخلفه عليكم و يعوضكم بدلا منه فى الدنيا مالا وفى الآخرة بالثواب الذى كلٌّ خلف دونه ، وفى الحديث : « أنفق بلالا ، ولا تخش من ذى العرش إقلالا » .

وعن مجاهد أنه خصه بالآخرة إذ قال : إذا كان لأحدكم شىء فليقتصد ولا يتأول هذه الآية : « وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه » فإن الرزق مقسوم ، ولعل ما قسم له قليل وهو ينفق نفقة الموسع عليه .

(وهو خير الرازقين) فيرزقه من حيث لا يحتسب ولا رازق غيره .

روى الشيخان عن أبى هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، و يقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا » .

وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلَائِكَةِ : أَهَؤُلَاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ (٤٠) قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنْتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُمْ بِهِمْ مُؤْمِنُونَ (٤١) فَالْيَوْمَ لَا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (٤٢) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن حال النبى صلى الله عليه وسلم مع قومه ليس بدعا بين الرسل ، فحاله معهم كحال من تقدمهم منهم مع أقوامهم ، فكلهم كُذِّبوا وكلهم أوذوا فى سبيل الله ؛ ثم أعقب ذلك بأن رد عليهم بأن كثرة الأموال والأولاد لاصلة لها بمحبة الله ، ولا سخطه ـ أردف ذلك بما يكون من حالهم يوم القيامة من التقريع والتأنيب بسؤال الملائكة أمامهم : هل هؤلاء كانوا يعبدونكم ؟ فيجيبون بأنهم كانوا يعبدون الشياطين بوسوستهم إليهم ، ثم بين أنهم فى ذلك اليوم لايقع لهم نفع ممن كانوا يرجون من الأوثان والأصنام ، ويقال لهم على طريق التوبيخ والتهكم : ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون .

الإيضاح

(ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة : أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟) أى واذكر أيها الرسول لقومك : يوم نحشر العابدين منهم والمعبودين المستكبرين منهم والمستضعفين ، ثم نسأل الملائكة : أأنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟

وهذا سؤال وجه إلى الملائكة ظاهرا ، والمراد منه تقريع المشركين وتيئيسهم مما علقوا عليه أطماعهم من شفاعتهم لهم ، فهو وارد على نهج قولهم : إياك أعنى واسمعى ياجاره ،

وعلى نهج قوله تعالى لعيسى « أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ ؟ » .

وقد علم سبحانه أن الملائكة وعيسى بُرَآء مما وجه إليهم من السؤال الوارد على طريق التقرير، ولكن جاء ليقول ويقولوا ، ويسأل ويجيبوا ، فيكون توبيخهم أشد ، وتعييرهم أبلغ ، وخجلهم أعظم .

(قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم) أى قالت الملائكة : تعاليت ربنا وتقدست عن أن يكون معك إله ، نحن عبيدك نبرأ إليك من هؤلاء وأنت الذى نواليه دونهم ، فلا موالاة بيننا وبينهم .

والخلاصة — إننا براء من عبادتهم والرضا بهم .

ثم بين أنهم ما عبدوهم على الحقيقة بقوله :

(بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) أى بل هم كانوا يعبدون الشياطين ، لأنهم هم الذين زينوا لهم عبادة الأوثان وأضلوهم ، وأكثر المشركين مؤمنون بالجن مصدقون لهم فيما يقولون ، إذ كانوا يعبدون غير الله بوسوستهم ويستغيثون بهم فى قضاء حاجتهم كما هو مشهور لدى أرباب العزائم والسحرة .

ونحو الآية قوله : « إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا . لَعَنَهُ اللَّهُ » .

ولما أبطل تمسكهم بهم بعد تقريعهم وتأنيبهم زادهم أسى وحسرة فقال :

(فاليوم لايملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا) أى فاليوم لايقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه من الأوثان والأنداد الذين ادخرتم عبادتهم لشدائدكم وكروبكم ، لأن الأمر فى ذلك اليوم لله الواحد القهار، لايملك أحد فيه منفعة لأحد ولامضرة له.

(ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التى كنتم بها تكذبون) أى ونقول للمشركين زجرا لهم وتأنيبا : ذوقوا عذاب النار التى كنتم تكذبون بها فى دنياكم ،

فهأنتم أولاء قد وردتموها وسمعتم شهيقها وزفيرها، وليس الخبر كالخبر، ولا السماع كالمعاينة، فعضوا بنان الندم أسى وحسرة على ما قدمتم فى دنياكم، فجنيتم صابه وعلقمه فى أخراكم .

وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين (٤٣) وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير (٤٤) وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير (٤٥) قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد (٤٦) قل ما سألتكم من أجر فهو لكم إن أجرى إلا على الله وهو على كل شىء شهيد (٤٧) قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب (٤٨) قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد (٤٩) قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى، وإن اهتديت فبما يوحى إلى ربى إنه سميع قريب (٥٠) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن المشركين هم أهل النار يوم القيامة وأنه يقال لهم يومئذ : ذوقوا عذابها الذى كنتم به تكذبون ـ أعقب ذلك بذكر ما لأجله استحقوا هذا العذاب

وهو صدهم عن دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم بقولهم فى القرآن : إنه إفك مفترى ، وإنه سحر واضح لاشك فيه ، وقد كان فيا حلّ بالأمم قبلهم مزدجر لهم لو أرادوا ، فقد بلغوا من القوة ما بلغوا ، وحين أرسل إليهم الرسل كذبوهم فأخذوا أخذ عزيز مقتدر ، ثم أنذرهم سوء عاقبة ماهم فيه وأوصاهم بأن يشمروا لطلب الحق متفرقين اثنين اثنين وواحدا واحدا ثم يتفكروا ليعلموا أن صاحبهم ليس بالمجنون ، بل هو نذير لهم يخوّفهم بأس الله وعذابه الشديد يوم القيامة وقد كان لهم من حاله مايرغبهم فى دعوته ، فهو لايطلب منهم أجرا ولا يريد منهم جزاء ، وإنما مثوبته عند ربه المطلع على كل شىء ؛ ثم أبان لهم أن الحق قد وضح وجاءت أعلام الشريعة كفلق الصبح نورا وضياء ولا بقاء للباطل ولا قرار له إذا ظهر نور الحق « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

الإيضاح

(وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم) أى وإذا تتلى آيات الكتاب الكريم على المشركين دالة على التوحيد وبطلان الشرك ، قالوا إن هذا الرجل يريد أن يلفتكم عن الدين الحق دين الآباء والأجداد ، ليجعلكم من أتباعه دون أن يكون له حجة على ما يدعى ، وبرهان يدل على صحة ما يسلك من سبيل .

ثم زادوا إنكارهم توكيدا وأيأسوه من الطمع فى إيمانهم .

(وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى) أى وقالوا إن القرآن الذى يدّعى محمد أنه وحى من عند ربه — كذب مختلق من عنده ، وقد نسبه إلى ربه ترويجا للدعوة واجتلابا لقلوب الكافة .

ثم شدّد مافى الإنكار فجعلوه سحرا بيّنا لاشك فيه عندهم كما حكى عنهم بقوله :

(وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين) أى وقال المشركون

لِمَ جاء به النبى صلى الله عليه وسلم من عند ربه مشتملا على الهدى والشرائع التى وجهتهم فى حياتهم الاجتماعية ونظم المعيشة وجهة جديدة تكون بها سعادتهم فى معاشهم ومعادهم وغيّرت الطريق التى ورثوها عن الآباء والأجداد ـ ما هذا إلا سحر بيّن لاخفاء فيه عندنا ، وقد أعمى أبصارنا وأضل أحلامنا فلم نستطع أن ندفعه بكل سبيل ، ولا يزال يلج القلوب ويقتحمها ويداخل النفوس ويستحوذ عليها ، ونحن فى حيرة من أمره لانجد طريقا للتغلب عليه بالوسائل التى نعرفها وهى بين يدينا.

والخلاصة — إنهم نفوا أن يكون وحياً من عند ربه وجعلوه إما كلاما مفترى جاء به لترويج دعوته ، وإما سحرا فعله ليخْلُب به العقول ويصد الناس عن الدين الحق الذى ورثوه عن الآباء والأجداد .

فرد الله سبحانه عليهم منكِرا دعواهم أن دينهم هو الدين الحق بقوله :

(وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير) أى إن الدين الصحيح إنما يأتى بوحى من عند الله وبكتاب ينزل على الرسول ليبلغه للناس ويبين لهم فيه ما جاء به من الشرائع والآداب والفضائل التى تكون بها سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، وهم أمة أمّيّة لم يأتهم كتاب قبل القرآن، ولم يبعث إليهم رسول قبل محمد، فمن أين أتاهم أن الدين الحق هو الذى يرشد إلى صحة الإشراك بالله ، وينفى توحيد الخالق حتى يكون لهم معذرة فيما يدّعون ، وحجة على صحة ما يعتقدون ؟ .

ولا يخفى ما فى هذا من التهكم بهم والتجهيل لهم :

ونحو الآية قوله : « أَمْ أَنْزَلْنَا عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا فَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَا كَانُوا بِهِ يُشْرِكُونَ » وقوله : « أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَابًا مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ » .

وبعد أن بشر وأنذر وأبان بالحجة والبرهان ما كان فيه المقنع لهم لو كانوا يعقلون ، سلك بهم سبيل التهديد والوعيد وضرب لهم المثل بالأمم التى كانت قبلهم وسلكت سبيلهم ولم تُجْدِها الآيات والنذر ، فحل بها بأس الله وأتاها العذاب من حيث لاتحتسب فقال :

(وكذب الذين من قبلهم وما بلغوا معشار ما آتيناهم فكذبوا رسلى فكيف كان نكير) أى ولقد كان لهم فيمن قبلهم من الأمم البائدة والقرون الخالية كقوم نوح وعاد وثمود ، وقد بلغوا من القوة والبأس ما لم يبلغوا معشاره ، فكذبوا رسلى حين أرسلوا إليهم فحل بهم النكال والوبال ودمّروا تدميرا ، ولم تغن عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا ، وإنهم ليشاهدون آثارهم فى حلهم وترحالهم فى غدوّهم ورواحهم كما قال فى آية أخرى : « وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ . وَبِاللَّيْلِ، أَفَلَا تَعْقِلُونَ » فليحذروا أن يصيبهم مثل ما أصاب أولئك .

والخلاصة - إن فيما حل بمن قبلهم من المثلات نكالا لهم على تكذيبهم رسلهم - لعبرة لهم لو كانوا يعقلون .

ثم أطال لهم الحبل ومدّ لهم الباع وأنصفهم فى الخصومة فقال :

(قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا) أى قل لهم : إن أرشدكم أيها القوم وأنصح لكم ألا تبادروا بالتكذيب عنادا واستكبارا ، بل اتئدوا وتفكروا مليا فى دعوتكم إليه وجدّوا واجتهدوا فى طلب الحق خالصا ، إما واحدا فواحدا ، وإما اثنين اثنين لعلكم تصلون إلى الحق وتهتدون إلى قصد السبيل وتكونون قد أنصفتم الحقيقة وأمطتم الحجب التى غشت أبصاركم ورانت على قلوبكم فلم تجعل الحق ينفذ فيها .

وإنما طلب إليهم التفكر وهم متفرقون اثنين اثنين أو واحدا فواحدا ، لأن فى الازدحام تهويش الخاطر والمنع من إطالة التفكير وتخليط الكلام وقلة الإنصاف ، وفيما يشاهد كل يوم من الاضطراب وتبلبل الأفكار فى الجماعات الكثيرة حين الجدل والخصومة مايؤيد صدق هذا .

ثم أبان لهم أن نتيجة الفكر ستؤدى بهم إلى أن يعترفوا بما يرشد إليه النظر الصحيح .

(ما بصاحبكم من جنة) إذ ما جاء به من ذلك الأمر العظيم الذى فيه سعادة البشر فى دنياهم وآخرتهم لايتصدى لادّعائه إلا أحد رجلين : إما مجنون لايبالى بافتضاحه حين مطالبته بالبرهان وظهور عجزه ، و إما نبى مؤيد من عند الله بالمعجزات الدالة على صدقه .

و إنكم قد علمتم أن محمدا أرجح الناس عقلا ، وأصدق الناس قولا ، وأزكاهم نفسا ، وأجمعهم للكمال النفسى والعقلى ؛ فوجب عليكم أن تصدقوه فى دعوته ، وقد قرنها بالمعجزات الدالة على ذلك .

وفى التعبير بصاحبكم إيماء إلى أنه معروف لهم مشهور لديهم ، فهو قد نشأ بين ظهرانَيْهم وعلموا ماله من صفات الفضل والنُّبْل وكرم الخلال مما لم يتهيأ لأحد من أترابه و لِدَاته .

و إذ قد استبان بالدليل أنه ليس بالمجنون فى كل مايقول و يدعى ، اتضح أنه صادق كما قال :

(إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد) أى ماهذا الرسول بالكاذب ، بل هو نذير لكم بعقاب الله حين تقدمون عليه ، لكفركم به وعصيانكم أمره .

و إنما جعل إنذاره بين يدى العذاب ، لأن محمدا مبعوث قرب الساعة كما جاء فى الحديث « بعثت أنا والساعة جميعا إن كادت لتسبقنى » .

وروى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال: «صعد النبى صلى الله عليه وسلم الصفا ذات يوم فقال : ياصباحاه ، فاجتمعت إليه قريش، فقالوا : مالك ؟ فقال : أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يصبّحكم أو يمسيكم أما كنتم تصدقونى ؟ قالوا بلى ، قال صلى الله عليه وسلم : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله عز وجل : تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ » .

ولما نفى عن رسوله الجنون وأثبت له النبوة — ذكر وجها آخر يؤكد ذلك فقال :

(قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجرى إلا على الله ، وهو على كل شىء شهيد) أى قل لهم : إنى لا أريد منكم أجرا ولا عطاء على أداء رسالة ربى إليكم ونصحى لكم وأمرى بعبادته ، إنما أطلب ثواب ذلك من الله ، وهو العليم بجميع الأشياء ، فيعلم صدقى وخلوص نيّتى .

وإذا علم أن الذى حمله على ركوب الصعاب واقتحام الأخطار ليس أمرا دنيويا، ثبت أن الذى حفزه إلى ذلك هو أمر الله تعالى له وقد صدع به «فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ» وبهذا ثبت أنه نبىّ .

ولما استبان أنه ليس بالمجنون ولا هو بطالب الدنيا ـ علم أن الذى جاء به هبط إليه من السماء وقذفه الوحى إليه ، وقد أمر أن يبلغه إليهم كما أشار إلى ذلك بقوله :

(قل إن ربى يقذف بالحق علام الغيوب) القذف الرمى بدفع شديد: أى قل لمن أنكر التوحيد ورسالة الأنبياء والبعث : إن ربى يلقى الوحى وينزله على قلب من يجتبيه من عباده ، وهو العليم بمن يصطفيهم كما قال سبحانه : « اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » وقال : « يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » .

وقد يكون المعنى كما روى عن ابن عباس : إن ربى يقذف الباطل بالحق ؛ أى يورده عليه حتى يبطله ويزيل آثاره ويشيع الحق فى الآفاق .

ولا يخفى مافى هذا من عِدَة بإظهار الإسلام ونشره بين الناس وتبلج نوره فى الكون ، ونحوه « بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ » .

ثم أكد ما سلف بأمره صلى الله عليه وسلم أن يخبر قومه بأن الإسلام سيعلو على سائر الأديان وأن غيره سيضمحل ويزول فقال :

(قل جاء الحق وما يبدئ الباطل وما يعيد) أى قل جاء الاسلام ورفعت رايته وعلا ذكره ، وذهب الباطل فلم تبق منه بقية تبدى شيئا أو تعيده .

وأصله فى هلاك الحى فإنه إذا هلك لم يبق له إبداء أى فعل أمر ابتداء، ولا إعادة أى فعله ثانيا ، وأنشدوا لعبيد بن الأبرص :

أقفر من أهله عَبِيد فاليوم لا يُبدى ولا يُعيدُ

روى البخارى ومسلم « أنه لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم المسجد الحرام يوم الفتح ووجد الأصنام منصوبة حول الكعبة جعل يطعُن الصنم منها بسِيَة قوسه ويقرأ : وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً ـ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ » .

ولما سد عليهم مسالك القول، لم يبق إلا أن يقولوا عنادا : إنه قد عرض له ما أضله عن محجة الصواب ، فأمر رسوله أن يقول لهم :

(قل إن ضللت فإنما أضل على نفسى وإن اهتديت فبما يوحى إلىّ ربى إنه سميع قريب) أى قل أيها الرسول لقومك : إن ضللت عن الهدى وسلكت غير طريق الحق فإنما ضُرّ ذلك على نفسى ، وإن استقمت على الحق فبوحى الله إلىّ وتوفيقه للاستقامة على محجة الحق وطريق الهدى ، إنه سميع لما أقول وتقولون ، ويجازى كلا بما يستحق ، قريب مجيب دعوة الداعى إذا دعاه .

روى الشيخان عن أبى موسى الأشعرى قال : « إنكم لاتدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا قريباً مجيباً » .

والخلاصة — إن الخير كله من الله وفيما أنزله علىّ من الوحى والحق المبين .

وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ (٥١) وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٢) وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ (٥٤)

شرح المفردات

الفزع : انقباض ونفار من الأمر المهول المخيف ، التناوش: التناول السهل لشىء قريب ؛ يقال للرجل إذا تناول رجلا ليأخذ برأسه ولحيته ، ناشه : ينوشه نوشا ، وأنشدوا لغيلان بن حُرَيث فى وصف الإبل :

فهى تنوش الحوض نوْشاً من علا نوشا به تقطع أجواز الفـــلا

يريد أنها عالية الأجسام طويلة الأعناق ، يقذفون بالغيب : أى يرجمون بالظنون التى لا علم لهم بها ، والعرب تقول لكل من تكلم بما لا يستيقنه : هو يقذف بالغيب . بأشياعهم : أى أشباههم ونظرائهم فى الكفر جمع شيع وشيع جمع شيعة ؛ وشيعة الرجل: أتباعه وأنصاره ، وكل قوم أمرهم واحد يتبع بعضهم رأى بعض فهم شيع ، مريب: أى موقع فى الريبة والظنة ، يقال أراب الرجل : أى صار ذا ريبة فهو مريب .

المعنى الجملى

بعد أن أبطل سبحانه شبههم ورد عليهم بما لم يبق بعده مستزاد لمستزيد - هددهم بشديد العقاب إن هم أصروا على عنادهم واستكبارهم ، ثم ذكر أنهم حين معاينة العذاب يقولون آمنا بالرسول، وأنّى لهم ذلك وقد فات الأوان ؟ وقد كان ذلك فى مَكِنَتهم فى دار الدنيا لو أرادوا ، أما الآن فإن ذلك لا يجديهم فتيلا ولا قِطْميرا من جَرَاء ما كانوا فيه من شك مريب فى الحياة الأولى ، وتلك سنة الله فى أشباههم من قبل .

الإيضاح

(ولو ترى إذ فزعوا فلا فوت) أى ولو رأيت أيها الرسول هؤلاء المكذبين حين يفزعون مما رأوا من العذاب الشديد - لرأيت من الأمر ما يعجز القول عن وصفه، فهم لا يتمكّنون من الهرب ، ولا يفوتهم ذلك العذاب ولا يجدون ملجأ ولا مأوى يبتعدون فيه .

(وأخذوا من مكان قريب) أى وأخذوا حين الفزع من الموقف إلى النار ولم يمكّنوا أن يمعنوا فى الهرب .

(وقالوا آمنا به وأنى لهم التناوش من مكان بعيد) أى وقالوا حينئذ : آمنا بالله وملائكته وكتبه ورسله ، وأنى لهم ذلك وقد صاروا بعيدين عن قبول الإيمان ؟ إذ هذه الدار ليست أهلا لقبول التكاليف من الإيمان بالله والعمل الصالح .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ » .

(وقد كفروا به من قبل) أى وكيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا الرسل ؟ .

(ويقذفون بالغيب من مكان بعيد) أى وهم قد كانوا يرجمون بظنون لامستند لهم فيها ، فيتكلمون فى الرسول بمطاعن ليس لها مايؤيدها ، فتارة يقولون إنه شاعر ، وأخرى إنه كاهن ، وثالثة إنه ساحر ، إلى نحو ذلك من الأقوال الباطلة ، ويكذبون بالبعث والنشور والحساب والجزاء .

(وحيل بينهم وبين ما يشتهون) أى وحيل بينهم وبين الرجوع إلى الدنيا ليعملوا صالحا كما قال : « فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا » .

ثم بين أن هذه سنة الله فى أمثالهم ممن كذبوا الرسل من قبلهم فقال :

(كما فعل بأشياعهم من قبل) أى فعلنا بهم كما فعلنا بالأمم الماضية التى كذبت رسلها فتمنوا حين رأوا بأس الله أن لو آمنوا ولكن لم يقبل منهم .

ثم علل عدم قبول إيمانهم ووصولهم إلى بغيتهم حينئذ بقوله :

(إنهم كانوا فى شك مريب) أى لأنهم كانوا فى الدار الأولى شاكين فيما أخبرت به الرسل من البعث والجزاء ، وقد تغلغل الشك فى قلوبهم حتى صاروا لايطمئنون إلى شىء مما جاءوا به .

ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) حمد الله والثناء عليه بما هو أهله .

(٢) مقال المشركين فى إنكار البعث والرد عليهم بأنه آتٍ لاشك فيه .

(٣) الاستهزاء بالرسول وحكمهم عليه بأنه إما مفتر و إما مجنون .

(٤) النعم التى آتاها سبحانه داود وسليمان عليهما السلام .

(٥) ما كان لسبأ من النعم ثم زوالها لكفرانهم بها واتباعهم وسوسة الشيطان.

(٦) النعى على المشركين لعبادتهم الأوثان والأصنام مع بيان أنها لاتفيدهم يوم القيامة شيئا .

(٧) الحجاج والجدل بين الأتباع والمتبوعين من الكافرين يوم القيامة و إلقاء كل منهما التبعة على الآخر .

(٨) بيان أن المترفين فى كل أمة هم أعداء الرسل، لاعتزازهم بأموالهم وأولادهم، واعتقادهم أنهم ما آتاهم ربهم ذلك إلا لرضاه عنهم ثم رده سبحانه عليهم .

(٩) سؤال الملائكة أمام المشركين بأنهم هل طلبوا منهم عبادتهم ؟ ليكون فى ردهم ما يكفى فى تبكيتهم .

(١٠) مقال المشركين عند سماع القرآن وادعاؤهم أنه ليس بوحى من عند الله بل الداعى مفتر ليصد الناس عن دين الآباء والأجداد .

(١١) عظتهم بما حل بمن قبلهم من الأمم .

(١٢) أمرهم بالتأمل والتدبر فى الأدلة التى أمامهم لعلهم يرعوون عن غيهم .

(١٣) إثبات أن الرسول نذير مبين، لامفتر ولا مجنون .

(١٤) الرسول لايطلب أجرا على دعوته ، بل أجره على الله .

(١٥) طلب المشركين يوم القيامة أن يرجعوا إلى الدنيا ليؤمنوا بالرسول و يعملوا صالح الأعمال ، ثم الرد عليهم بأن ذلك قد فات أوانه وأن لا سبيل إلى تحقيقه .

سورة فاطر — سورة الملائكة

هى مكية نزلت بعد سورة الفرقان وآيها خمس وأربعون .

ومناسبتها لما قبلها :

إنه لما ذكر سبحانه فى آخر سابقتها هلاك المشركين وإنزالهم منازل العذاب — لزم المؤمنين حمده تعالى وشكره كما جاء فى قوله : « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً أُولِي أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١) .

شرح المفردات

فطر الشىء : أوجده على غير مثال سابق ، رسلا : أى وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون عنه رسالاته ، مثنى وثلاث ورباع : أى اثنين اثنين وثلاثة ثلاثة وأربعة أربعة.

الإيضاح

(الحمد لله فاطر السموات والأرض) أى له سبحانه الشكر فقد أبدع خلق السموات والأرض وما بينهما على غير مثال سابق وأحكم تدبيرهما على أتم نظام ، كما قيل : ليس فى الإمكان أبدع مما كان .

(جاعل الملائكة رسلا أولى أجنحة مثنى وثلاث ورباع) أى جاعل الملائكة وسائط بينه وبين أنبيائه يبلغون إليهم رسالاته — ذوى أجنحة إما اثنين اثنين، وإما ثلاثة ثلاثة ، وإما أربعة أربعة .

والأجنحة فى العالم المادى تساعد على الطيران ، وكثرتها تومئ إلى السرعة ، وهى فى عالم الأرواح ترشد إلى القدرة على السرعة فى تنفيذ أوامر الله وتبليغ رسالات ربهم إلى أنبيائه .

وفى هذا إيماء إلى أن الملائكة تتفاوت أقدارهم وقواهم عند الله تعالى على حسب استعدادهم الروحى. وفى صحيح مسلم عن ابن مسعود «أن النبى صلى الله عليه وسلم رأى جبريل فى صورته له ستمائة جناح » وفى هذا رمز إلى قوة استعداده الروحى وقربه من الملإ الأعلى وسرعة تنفيذه ما يؤمر به .

(يزيد فى الخلق مايشاء) أى يزيد فى خلق الأجنحة مايشاء، كما يزيد فى أرجل الحيوان ما يشاء حتى لقد تبلغ فوق العشرين أحيانا ، وهكذا يزيد فى تفاوت العقول والنفوس والقوى المادية والمعنوية كما قيل.

والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنا

(إن الله على كل شىء قدير) فيزيد كل ما هو أهل للزيادة وما هو مستعد لها، حسية كانت أو معنوية ، فلا يمتنع عليه فعل شىء أراده ، لما له من القدرة والسلطان على كل شىء .

مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا، وَمَا يُمْسِكْ فَلَا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٢) .

شرح المفردات

يفتح : يعطى ، ورحمة : أى نعمة حسية كانت أو معنوية كرزق وصحة وأمن وعلم وحكمة ، إلى نحو ذلك مما لايحاط به .

المعنى الجملى

بعد أن وصف سبحانه نفسه بالقدرة الكاملة والإرادة النافذة - أيد ذلك بما يشاهده كل أحد فى نفسه من الضيق حينا والسعة حينا آخر، مع العجز عن دفع البؤس إن وجد، وجلب النعمة لو أراد.

الإيضاح

مفاتيح الخير ومغاليقه كلها بيده سبحانه، فما يعطى من خير فلا يستطيع أحد منعه ولا إمساكه، وأى خير يمسكه فلا يبسطه ولا يفتحه لهم فاتح، لأن الأمور كلها بيده، ومنه البذل والعطاء، والمنع والإمساك.

وهو الغالب على كل ما يشاء من الأمور التى منها الفتح والإمساك، وهو الحكيم الذى يفعل كل ما يفعل على حسب ما تقتضيه الحكمة والمصلحة.

وفى الآية عظة للناس بالإقبال إلى ربهم والتوجه إليه فى قضاء حاجهم والتوكل عليه فى جميع مآربهم، والإعراض عما سواه من جميع خلقه.

ونحو الآية قوله: « وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ ».

روى أحمد عن المغيرة بن شعبة أنه قال: «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إذا انصرف من الصلاة: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شىء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت، ولا ينفع ذا الجَدِّ منك الجَدُّ».

وروى مسلم عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا رفع رأسه من الركوع يقول: سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد ملء السماء والأرض وملء ما شئت من شىء بعد، اللهم أهل الثناء والمجد،

أحق ما قال العبد ، وكلنا لك عبد : اللهم لامانع لما أعطيت ولا معطى لما منعت ولا ينفع ذا الجدّ منك الجدّ » .

وأخرج ابن المنذر عن عامر بن عبد قيس قال : أربع آيات من كتاب الله إذا قرأتُهن فما أبالى ما أُصبح عليه وأمسى : (١) ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده . (٢) وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله . (٣) سيجعل الله بعد عسر يسرا . (٤) وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها .

يأَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ ، هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٣) .

شرح المفردات

أنى تؤفكون : أى من أين تصرفون عن توحيد الخالق مع الاعتراف بأنه وحده هو الرازق ، وتشركون المنحوت : بمن له الملكوت .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه وحده هو المنعم بما يشاهده كل أحد فى نفسه ـ أمر بذكر نعمه بالاعتراف بها والشكر عليها .

الإيضاح

أيها الناس راعوا نعم الله واحفظوها بمعرفة حقها والاعتراف بها ، وخصوا خالقها بالعبادة والطاعة فهو الذى بيده أرزاقكم وأقواتكم ، فإلى أىّ وجه تصرفون عنه بعد أن استبان الحق ، ووضح السبيل .

والخلاصة — احفظوا نعم الله وأدوا حقها ولا تشركوا به سواه من الأصنام والأوثان ، بعد وضوح الدليل وسطوع البرهان .

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ وَإِلَى اللهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤) يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ (٥) إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُو حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ (٦) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأصل الأول وهو التوحيد — ثنى بذكر الأصل الثانى وهو الرسالة وسلى رسوله عن تكذيب قومه له بأنه ليس ببدع بين الرسل فقد كُذِّب كثير منهم قبله ، فعليه أن يتأسى بهم ويصبر على أذاهم ؛ ثم ذكر الأصل الثالث وهو البعث والنشور مع بيان أنه حق لاشك فيه ، وأنه لاينبغى أن يقبلوا فيه وساوس الشيطان فإنه عدو لبنى آدم ولا يرشدهم إلا إلى الذنوب والآثام التى توصلهم إلى عذاب النار وبئس القرار .

الإيضاح

(وإن يكذبوك فقد كذبت رسل من قبلك وإلى الله ترجع الأمور) أى وإن استمر قومك على تكذيبك فيما بلغته إليهم من الحق المبين ، بعد أن أقمت لهم الحجج وضربت الأمثال ، فتأسّ بمن سبقك من الرسل فقد صبروا على ما أوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله .

وإلى الله مرجع أمرك وأمرهم فيجازيك وإياهم على الصبر والتكذيب .

ثم ذكر أن البعث آت لاريب فيه فقال :

(يأيها الناس إن وعد الله حق فلا تغرنكم الحيوة الدنيا ولا يغرنكم بالله الغرور) أى إن وعد الله بالحشر والجزاء حق لاشك فيه ، فلا تغرنكم الحياة الدنيا فيذهلكم التمتع بمتاعها ، ويلهيكم التلهى بزخارفها عن تدارك ما ينفعكم يوم حلول الميعاد اتباعا لوساوس الشيطان .

والخلاصة — إنكم لاتغتروا بالحياة الدنيا وتتركوا فعل ما أمرتم به وتفعلوا مانهيتم عنه .

ثم ذكر العلة فى عدم الاغترار بالشيطان فقال :

(إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا) أى إن الشيطان معن عداوته لكم بوسوسته ، فعادوه أنتم أشد العداوة وخالفوه وكذبوه فيما يغركم به .

ثم ذكر أعماله ودعوته أتباعه إلى الغواية والضلالة فقال :

(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) أى ما غرضه من دعوة شيعته إلى اتباع الهوى والركون إلى لذات الدنيا إلا إضلالهم وإلقاؤهم فى العذاب الدائم من حيث لايشعرون .

الَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ (٧) أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ (٨)

شرح المفردات

الحسرات : واحدها حسرة ، وهى الغم على ما فات والندم عليه .

المعنى الجملى

بعد أن أبان أن الشيطان يضل أتباعه ويدعوهم إلى النار - ذكر هنا أن حزب الشيطان له العذاب الشديد ، وأن حزب الله له المغفرة والأجر الكبير ، ثم بين أن الضلال والهداية بيد الله على حسب ما يعلم من الاستعداد وصفاء النفوس وقبول الهداية ، أو تدسيتها وارتكابها الإجرام والمعاصى ، فلا تحزن على ما ترى من ضلال قومك واتباعهم لوساوس الشيطان ، والله عليم بحالهم وسيجازيهم بما يستحقون .

أخرج جويبر عن الضحاك أن الآية نزلت فى عمر رضى الله عنه وأبى جهل حيث هدى الله عمر وأضل أبا جهل .

الإيضاح

(الذين كفروا لهم عذاب شديد) أى الذين كفروا بالله ورسوله لهم عذاب من الله شديد فى النار ، من جراء كفرهم وإجابتهم دعوة الشيطان واتباعهم خطواته .

(والذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة وأجر كبير) أى والذين صدقوا الله ورسوله وعملوا بما أمرهم به وانتهوا عما نهاهم عنه - لهم مغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير جزاء ما ملئوا به قلوبهم من عامر الإيمان ، وأخبتوا إلى ربهم بصالح الأعمال .

ثم بين البعد ما بين الفريقين واختلاف حال الفئتين فقال :

(أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا) أى أفمن حسن له الشيطان سيئ الأعمال من معاصى الله والكفر به وعبادة ما دونه من الآلهة والأوثان ، فحسب سيئ ذلك حسنا ، وظن قبيحه جميلا ، ألك فيه حيلة ؟

ثم ذكر السبب فى اتجاه كل من الفريقين إلى ما اتجه إليه فقال :

(فإن الله يضل من يشاء ويهدى من يشاء) أى فإن ذلك الإضلال بمشيئة الله تعالى التابعة لعلمه باستعداد النفوس للخير وللشر ، وقد تقدم ذلك غير مرة فلا حاجة إلى الإطناب فيه .

ثم أتى بما هو كالنتيجة لما سلف فقال :

(فلا تذهب نفسك عليهم حسرات) أى فلا تأسف على عدم إيمانهم و إجابتهم دعوتك ، فإن الله حكيم فى قدره ، فهو يضل من يضل من عباده و يهدى من يشاء ، لما له فى ذلك من الحجة البالغة والعلم التام باستعداد النفوس إما بإخباتها إلى ربها و إنابتها إليه وميلها إلى صالح العمل ، و إما بتدسيتها وحبها لاجتراح السيئات وارتكاب الموبقات ، ونحو الآية قوله : « فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا » .

ثم هدد الكافرين على قبيح أعمالهم فقال :

(إن الله عليم بما يصنعون) أى إن الله عليم بما يصنعون من القبائح فيجازيهم عليه بما يستحقون ، وفى هذا وعيد تنهد منه الجبال وتندك منه الأرض دكا .

وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَحْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا ، كَذَلِكَ النُّشُورُ (٩) مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ، وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ (١٠) وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ ، إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (١١) .

شرح المفردات

أرسل : أى أطلق وأوجد من العدم ، تثير : أى تحرك ، ميْت وميّت بمعنى قاله محمد بن يزيد وأنشد :

ليس من مات فاستراح بمَيْت إنما الميْت ميّت الأحياء
إنما الميْت من يعيش كئيبا كاسفاً باله قليلَ الرجاء

ويرى بعضهم أن الميت بالتخفيف هو الذى مات، والميت بالتشديد، والمائت هو الذى لم يمت بعد وأنشد :

ومن يك ذا روح فذلك ميّت وما الميْت إلا من إلى القبر يحمل

والمراد أنه لا نبات فيه ، والنشور : إحياء الأموات يقال نشر الله الميت وأنشره ، أى أحياه، العزة : أى الشرف والمَنَعة من قولهم أرض عزاز : أى صلبة ، والكلم الطيب : هو التوحيد أو الذكر أو قراءة القرآن ، وصعوده إلى الله قبوله ، والعمل الصالح هو ما كان بإخلاص ، يرفعه : أى يقبله ، يمكرون : أى يعملون على وجه المكر والخديعة ، والسيئات : المكرات السيئات كأن يراءوا المؤمنين فى أعمالهم يوهمونهم أنهم فى طاعة الله ، يبور : أى يفسد من البوار وهو الهلاك ، أزواجا : أى أصنافا ذكرانا وإناثا ، يعمر من معمر : أى يمد فى عمر أحد ، فى كتاب : أى فى صحيفة المرء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن الكافرين لهم عذاب شديد يوم القيامة ، وأن الذين يعملون الصالحات لهم أجر كبير عند ربهم فى ذلك اليوم ـ أردف ذلك ببيان أن هذا اليوم لاريب فيه ، وضرب المثل الذى يدل على تحققه لامحالة ، ثم ذكر أن من يريد العزة فليطع الله ورسوله ولا يتعزز بعبادة الأصنام والأوثان كما أخبر الله عنهم « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا » وأن العمل الطيب يرفع إلى الله ويحفظ لديه ويجازى عليه ؛ ثم أعقب ذلك بأن من يمكر بالمؤمنين ويريد خداعهم فالله يفسد عليه تدبيره ويجازيه بما عمل شر الجزاء ، وبعد أن ذكر دليل البعث بما يشاهد فى الآفاق من دلائل القدرة ، ذكر دليلا عليه بما يرى فى الأنفس من اختلاف

أطوارها ، فقد كانت ترابا ثم نطفة ثم وضعت فى الأرحام إلى أن صارت بشرا سويا ، ومنها ما يمد فى عمرها ، ومنها ما يُخْـتَرَم قبل ذلك ، كما تدل عليه المشاهدة ، وكل ذلك يسير على الله .

الإيضاح

(والله الذى أرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور) أى أفلا تتدبرون وتعقلون فتعلموا أن من أوجد الرياح بعد أن لم تكن ثم جعلها تسير السحاب الثقال فتنزل منها الغيث إلى الأرض الجُرُز التى لا نبات بها فتحيا بعد أن كانت ميتة وتهتز وتربو وتنبت كل زوج بهيج - أفليس ذلك القادر الحكيم الذى أحيا ميت الأرض بقادر على أن يحيى الموتى بعد بلاها ، وبعد أن كانت عظاما نخرة ؟ إنه على كل شىء قدير .

وعن أبى رزين قال : «قلت يا رسول الله كيف يحيى الله الموتى ؟ وما آية ذلك فى خلقه ؟ قال صلى الله عليه وسلم يا أبا رزين أما مررت بوادى قومك مُمْحِلا ، ثم مررت به يهتز خضرا ؟ قلت بلى ، قال صلى الله عليه وسلم فكذلك يحيى الله الموتى» .

(من كان يريد العزة فلله العزة جميعا) أى من كان يود أن يكون عزيزا فى الدنيا والآخرة فليلزم طاعة الله تعالى ، فإن بها تنال العزة إذ لله العزة فيهما جميعا .

(إليه يصعد الكلم الطيب) أى إنه سبحانه يقبل طيب الكلام كالتوحيد والذكر وقراءة القرآن ، ومن الذكر : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر .

(والعمل الصالح يرفعه) صلاح العمل بالإخلاص فيه ، وما كان كذلك قبله الله وأثاب عليه ، وما لا إخلاص فيه فلا ثواب عليه بل عليه العقاب ، فالصلاة والزكاة وأعمال البر إذا فعلت مراءاة للناس لا يتقبلها الله كما قال سبحانه « فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ . الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ . الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ . وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ » .

وروى عن ابن عباس أنه قال : الكلام الطيب ذكر الله ، والعمل الصالح : أداء

فرائضه . وعن الحسن وقتادة : لايقبل الله قولا إلا بعمل ، من قال وأحسن قبل الله منه .

والخلاصة — إن القول إذا لم يصحبه عمل لايقبل ، وأنشدوا :

لاترضَ من رجلٍ حلاوةَ قوله حتى يُزَيِّن ما يقولُ فِعال
وإذا وزنتَ فَعاله بمقاله فتوازنا فإخاءُ ذاك جمال

وقال ابن المُقَفَّع : قول بلا عمل كثريدٍ بلا دسم ، وسحاب بلا مطر ، وقوس بلا وتر .

وبعد أن ذكر أن العمل الصالح يصعد إلى الله، ذكر أن المرائين لايتقبل منهم عمل ، ولهم عذاب شديد عند ربهم .

(والذين يمكرون السيئات لهم عذاب شديد) أى والذين يمكرون المكر السيء بالمسلمين بأن يعملوا كل ما يكون سببا فى ضعف الإسلام والحط من قدره والإفساد بين بينهم حتى يمّحى أثره من الوجود كما فعلت قريش فى دار الندوة ، إذ تدارست الرأى فى شأن النبي صلى الله عليه وسلم بحبسه أو قتله أو إجلائه من مكة لهم العذاب الشديد يوم القيامة .

(ومكر أولئك هو يبور) أى ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر ، فإنه ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه ، وما أسر أحد سريرة إلا كساه الله رداءها إن خيرا فخير وإن شرا فشر ، فالمرائى لايروج أمره ولا يستمر إلا على غبيّ ، أما المؤمنون المتفرسون فلا يروج ذلك عليهم ، بل ينكشف عن قريب ، وعالم الغيب لايخفى عليه خافية .

ثم ذكر دليلا على صحة البعث بما يرى فى الأنفس فقال :

(والله خلقكم من تراب ثم من نطفة ثم جعلكم أزواجا) أى والله خلق الناس من النطفة، والنطفة من الغذاء، والغذاء ينتهى آخرا إلى الماء والتراب ، فهم من تراب صار نطفة ، ثم جعلهم أصنافا ذكرانا وإناثا بقدر معلوم بحيث يكاد الفريقان يستويان عددا ، ولو لم يكن كذلك لفنى الإنسان والحيوان ، إذ حفظ النوع لايتم

إلا بتلك المساواة على وجه التقريب ، ولا تكون المساواة إلا بتدبير وعلم ، وإلى ذلك أشار بقوله :

(وما تحمل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه) أى ولا تحمل الأنثى ولا تضع إلا وهو عليم بذلك لايخفى عليه ، ولو لم يكن كذلك وكانت المصادفة العمياء هى صاحبة السلطان فى هذا العالم ، لم يتم التوازن فى العدد بين الزوجين فيفنى الإنسان والحيوان .

ونحو الآية قوله : « اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ، وَكُلُّ شَىْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ » .

(وما يعمَّر من معمَّر ولا ينقص من عمره إلا فى كتاب) أى لا أحد يقضى له بطول العمر إلا وهو بالغ ماقدر له ، لايزيد على ذلك ولاينقص عنه ، ولا أحد مقدر له قصر العمر بزائد على ما قدر له فى الكتاب الذى كتب له ، وذلك لحفظ الموازين فى الأرض حتى ينتظم العمران ، ولو لم يكن على هذا النحو لاختلط الحابل بالنابل وساء حال الكون ، إذ يكثر الناس وتزدحم الأرض ويشتد الكرب ، ومن ثم تفاوتت الأعمار فى جميع الأمصار وكانت بمقدار ، واعتدل النظام بالمرض والموت والوباء والحرب .

(إن ذلك على الله يسير) أى إن ذلك النظام البديع للعالم ـ هيّن على الله لعلمه الشامل ، وعدم خفاء شىء عليه .

وَمَا يَسْتَوِى الْبَحْرَانِ : هٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ ، وَهٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ، وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (١٢) يُولِجُ اللَّيْلَ فِى النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ

يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى ، ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ (١٤) .

شرح المفردات

عذب : أى حلو لذيذ طعمه ، فرات : أى كاسر للعطش مزيل له ، سائغ : أى سهل انحداره لخلوه مما تعافه النفس ، أجاج : أى شديد الملوحة والحرارة ، حلية : أى لؤلؤا ومرجانا ، مواخر : أى شاقات الماء حين جريانها ، يولج : أى يدخل ، والقطمير : لفافة النواة ، وهى القشرة البيضاء الرقيقة التى تكون بين التمرة والنواة ، يكفرون بشرككم : أى يجحدون بإشراككم إياهم وعبادتكم لهم ، ولا ينبئك مثل خبير : أى ولا يخبرك بالأمر مخبر مثل الخبير به .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر الأدلة على إثبات البعث وضرب المثل لذلك بإحياء الأرض الميتة بعد إنزال الغيث عليها — أردف هذا ذكر البراهين المختلفة على وحدانيته وعظيم قدرته بخلقه الأشياء المتحدة فى الجنس المختلفة فى المنافع ، فهذا ماء عذب زلال يجرى فى الأقاليم والأمصار ، والبرارى والقفار ، يُسْقَى منه الإنسان والحيوان وينبت النبات الذى فيه غذاء لهما ، وهذا ماء ملح أجاج تسير فيه السفن الكبار ويستخرج منه اللؤلؤ والمرجان ، ومن كل منهما نأكل لحما طريًّا فيه لذة للآكلين ، وهذان ليل ونهار ، ضياء وظلام ، يدخل أحدهما فى الآخر فيأخذ هذا من طول ذاك ، ويزيد هذا فى قصر ذاك فيعتدلان ، ثم يتقارضان صيفا وشتاء ، وسخر الشمس والقمر والنجوم

الثوابت والسيارات ، كل يجرى بمقدار معين وعلى نهج ثابت لا يتغير ، كل ذلك بتقدير العزيز العليم .

أما ما تدعون من دونه من الأصنام والأوثان فلا يملكون شَرْوَى نقير ولا يسمعون لكم دعاء ، ولا يستجيبون لدعوة ، ويوم القيامة يتبرءون منكم إذا دعوتموهم واستشفعتم بهم ، ولا ينبئك بهذا إلا الخبير وهو ربك العليم بما كان وما سيكون .

الإيضاح

(وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج) أى وما يعتدل البحران فيستويان : أحدهما عذب سائغ شرابه يجرى فى الأنهار السارحة بين الناس من كبار وصغار على حسب الحاجة إليها فى الأقاليم والأمصار . وثانيهما ملح ساكن تسير فيه السفن الكبار .

(ومن كل تأكلون لحما طريا) أى ومن كل البحار تأكلون السمك الغض الطرى فضلا من الله ومنة .

(وتستخرجون حلية تلبسونها وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) أى وتستخرجون الدرّ والمرجان من الملح الأجاج ومن العذب الفرات ، وتجرى السفن فى كل منهما تشقها شقا بحيازيمها حين جريها مقبلة مدبرة حاملة أقواتكم من بلد إلى آخر فتدفع عنكم المَخْمَصَة وتسدّ العَوَز .

لعلكم تشكرونه سبحانه على تسخيرها لكم ، تتصرفون فيها كيف شئتم ، وتذهبون فيها إن أردتم .

ولما كان بين الفلك فى البحر والشمس والقمر فى مدارهما مناسبة ، فإن كلا منهما سارح فى تلك العوالم الشاسعة — أردفه ذكر الليل والنهار وتسخير الشمس والقمر فقال :

(يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يدخل الليل فى النهار فيكون

النهار أطول من الليل ساعة فأكثر ، ويدخل النهار فى الليل فيكون الليل أطول من النهار كذلك .

(وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى) أى وأجرى لكم الشمس والقمر نعمة منه عليكم ورحمة بكم ، لتعلموا عدد السنين والحساب ، ولتسكنوا فى الليل وتبتغوا فضلا منه فى النهار ولا يزالان يجريان هكذا لأجل معلوم لا يقصران دونه ولا يتعديانه ، وهو يوم القيامة .

(ذلكم الله ربكم له الملك) أى ذلكم الذى يفعل هذه الأفعال هو معبودكم الذى لا تصلح العبادة إلا له ، وهو ربكم الذى له الملك التام والسلطان المطلق والقهر والجبروت ، وكل من فى السموات والأرض فهو عبد له وتحت قبضته وبطشه .

(والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير) أى والذين تعبدونهم من الأصنام والأوثان لا يملكون شيئا ولو كان حقيرا ، بل هم ملك الخالق القوَى والقُدَر.

ثم أكد ما سلف مبينا حقارة شأنهم وعظيم ضعفهم بقوله :

(إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم) أى وإن تدعوا هذه الآلهة من دون الله لا تسمع لكم دعاء ، لأنهم جماد لا أرواح لهم ، ولو سمعوا ما قدروا أن ينفعوكم ويستجيبوا لشىء مما تطلبون .

والخلاصة — كيف تعبدون من لا ينفع ولا يضر وتدَعون من بيده النفع والضر، وهو الذى ذرأكم فى الأرض وإليه تحشرون .

وبعد أن نفى المقتضى للعبادة ، وهو مجىء النفع والضر من قِبَلهم ، ذكر المانع من عبادتهم وهو كفرهم بهم يوم القيامة فقال :

(ويوم القيامة يكفرون بشرككم) أى وهم يوم القيامة يتبرءون منكم ويقولون : ما كنتم إيانا تعبدون ، بل كنتم تعبدون أهواءكم وشهواتكم وما زينته لكم شياطينكم.

ونحو الآية قوله : « وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا : كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا » .

ثم أكد صدق ما حكاه عنهم من أحوالهم بقوله :

(ولا ينبئك مثل خبير) أى ولا يخبرك عن أمر هذه الآلهة وعن أمر عبدتها يوم القيامة إلا ذو خبرة بأمرها وأمرهم ، وهو الله الذى لا يخفى عليه شىء كان ، أو سيكون فى مستأنف الزمان .

يَاأَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (١٥) إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٦) وَمَا ذَٰلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (١٧) وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى ، وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى ، إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ ، وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ ، وَإِلَى اللهِ الْمَصِيرُ (١٨) .

شرح المفردات

ولا تزر : أى ولا تحمل ، وازرة : أى نفس آثمة ، وزر أخرى : أى إثم نفس أخرى ، والمثقلة : النفس التى أثقلتها الذنوب والأوزار ، ذا قربى : أى ذا قرابة من الداعى ، بالغيب : أى غائبا عنهم ، وتزكى : أى تطهر من دنس الأوزار والذنوب ، والمصير : المرجع والعاقبة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن ملك السموات والأرض له ، وأن ما يدعون من دونه من الأصنام والأوثان لا يملك شيئا ولا يجلب نفعا ولا يدفع ضرا ـ أعقب هذا بما هو فذلكة لما تقدم وكالنتيجة له ، بأنه لا افتقار إلا إليه ولا اتكال إلا عليه ، فهو الذى تجب عبادته وحده ، لأن النفع والضر بيده لا شريك له ؛ ثم بين أنه يوم القيامة

لا تجزى نفس عن نفس شيئا ولا تستطيع دفع ضر عنها ولو كانت ذات قرابة منها ، ثم أرشد إلى أن البشارة والإنذار إنما تجدى نفعا لدى من يخشى الله ويخاف عقابه ، وأن من يتزكى فإنما يتزكى لنفسه ونفع ذلك عائد إليه ، وإلى الله عاقبة الأمور كلها ومردها إليه .

الإيضاح

(يأيها الناس أنتم الفقراء إلى الله ، والله هو الغنى الحميد) أى أنتم أيها العباد أولو الحاجة والفقر إلى خالقكم ورازقكم ، فإياه فاعبدوا ، وإلى رضاه فسارعوا ، وهو الغنى عن عبادتكم وعن غيرها ، وهو المحمود على نعمه ، فكل نعمة بكم وبسواكم فهى منه ، فله الحمد والشكر على كل حال .

والخلاصة — أنتم فى حاجة إليه وهو ذو الغنى وحده لاشريك له ، والمحمود فى جميع ما يقول ويفعل ويشرع لكم ولغيركم من الأحكام .

ثم أرشد إلى غناه وإلى قدرته الكاملة بقوله :

(إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد وما ذلك على الله بعزيز) أى إن يشأ ربكم أن يهلككم أهلككم ، لأنه هو الذى أنشأكم من غير حاجة به إليكم ، ويأت بخلق سواكم يطيعونه ويأتمرون بأمره وينتهون عما نهاهم عنه ، وما ذلك بصعب على الله الخالق لجميع عباده ، بل هو يسير هيِّن عليه .

وليس بخاف ما فى هذا من تهديد ووعيد ، وزجر وتأنيب .

ثم أخبر عن أحوال يوم القيامة وأهوالها وشدائدها بقوله :

(ولا تزر وازرة وزر أخرى) أى ولا تحمل نفس مذنبة ذنب نفس أخرى ، بل تحمل كل نفس وزْرها فحسْبُ ، ولا تنافى بين هذا وما جاء فى سورة العنكبوت من قوله سبحانه : « وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ » فإن هذا فى الضالين المضلين وهم يحملون إثم إضلالهم مع إثم ضلالهم ، وكل ذلك آثامهم لا آثام غيرهم .

(وإن تدع مثقلة إلى حملها لايحمل منه شيء ولوكان ذا قربى) أى وإن تسأل نفس ذات ثقل من الذنوب ، من يحمل عنها ذنوبها ؟ لم تجد من يجيبها إلى ما تطلب ولوكان المدعو ذا قرابة لها كأب أو ابن، إذ كلٌّ مشغول بنفسه ولكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .

ونحو الآية قوله : « لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا » وقوله : « يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ . لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ » .

قال عكرمة : إن الوالد ليتعلق بولده يوم القيامة فيقول يا بُنَىّ : أىّ والد كنت لك ؟ فيثنى خيرا فيقول له يا بنى إنى قد احتجت إلى مثقال ذرة من حسناتك أنجو بها مما ترى ، فيقول له ولده : ياأبت ماأيسر ما طلبت ، ولكنى أتخوف مثل ما تتخوف ، فلا أستطيع أن أعطيك شيئا ، ثم يتعلق بزوجته فيقول يا فلانة : أىّ زوج كنت لك ؟ فتثنى خيرا فيقول لها إنى أطلب إليك حسنة واحدة تهبينها لى لعلى أنجو بها مما ترين ، فتقول ما أيسر ما طلبت ، ولكنى لا أطيق أن أعطيك شيئا ، إنى أتخوف مثل الذى تتخوف .

ثم سلى رسوله صلى الله عليه وسلم عن عدم قبولهم دعوته وإصرارهم على عنادهم فقال :

(إنما تنذر الذين يخشون ربهم بالغيب وأقاموا الصلاة) أى إنما يجدى النصح والإنذار لدى من يخشون الله ويخافون شديد عقابه يوم القيامة من غير معاينة منهم لذلك ، بل لإيمانهم بما أتيت به وتصديقهم لك فيما أنبأت به عن ربك ، فهؤلاء هم الذين ينفعهم إنذارك ويتعظون بمواعظك ، لا من طبع الله على قلوبهم فهم لايفقهون - إلى أنهم يؤدون الصلاة المفروضة عليهم ويقيمونها على ما رسمه الدين ،

فهى التى تطهر قلوبهم وتقربهم من ربهم حين مناجاتهم له كما جاء فى الحديث « اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » .

والخلاصة — إنه إنما ينفع إنذارك وتخويفك من يخشى بأس الله وشديد عقابه دون من عداهم من أهل التمرد والعناد .

ثم حث على الأعمال الصالحة وأبان أن فائدتها عائدة إليهم فقال :

(ومن تزكى فإنما يتزكى لنفسه وإلى الله المصير) أى ومن يتطهر من أدناس الشرك وأوضار الذنوب والمعاصى فنفع ذلك عائد إليه : كما أن من يتدسى بالذنوب والآثام فضر ذلك راجع إليه ، وإلى الله مصير كل عامل وهو مجازيه بما قدم من خير أو شر على ما جنى وأثّل لنفسه .

وَمَا يَسْتَوِى الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ (١٩) وَلاَ الظُّلُمَاتُ وَلاَ النُّورُ (٢٠) وَلاَ الظِّلُّ وَلاَ الْحَرُورُ (٢١) وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاءُ وَلاَ الْأَمْوَاتُ ، إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشَاءُ وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِى الْقُبُورِ (٢٢) إِنْ أَنْتَ إِلاَّ نَذِيرٌ (٢٣) إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلاَّ خَلاَ فِيهَا نَذِيرٌ (٢٤) وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ، جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ (٢٥) ثُمَّ أَخَذْتُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٢٦) .

شرح المفردات

الحرور : السموم إلا أن السموم يكون بالنهار والحرور بالليل والنهار ، خلا : أى سلف ومضى ، ونذير : أى منذر ومخوف وهو النبى ، والبينات : أى المعجزات

الدالة على صدقهم فيما يدعون ، والزبر : واحدها زبور وهو الكتاب ، النكير : الإنكار بالعقوبة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه طريق الهدى وطريق الضلالة وذكر أن المستعد للإيمان قد اهتدى بهدى النذير ، والجاحد المعاند قسا قلبه ولم يستفد من هديه ــ ضرب مثلا به تنجلى حاليهما ، ثم ذكر أن الهداية بيد الله يمنحها من يشاء وأن هؤلاء المشركين كالموتى لا يسمعون نصيحة ولا يهتدون بعظة ، وأن الله لم يترك أمة سدى بل أرسل الرسل ؛ فمنهم من أجاب دعوة الداعى ونجا ، ومنهم من استكبر وعصى ، وكانت عاقبته الوبال والنكال فى الدنيا والنار فى العقبى .

الإيضاح

(وما يستوى الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور) أى وما يستوى الأعمى عن دين الله الذى ابتعث به نبيه صلى الله عليه وسلم والبصير الذى قد أبصر فيه رشده فاتبع محمدا صلى الله عليه وسلم وصدّقه وقبل عن الله ما ابتعثه به ، وما تستوى ظلمات الكفر ونور الإيمان ولا الثواب والعقاب .

ثم ضرب مثلا آخر لهما فقال :

(وما يستوى الأحياء ولا الأموات) أى وما يستوى أحياء القلوب بالإيمان بالله ورسوله ومعرفة كتابه وتنزيله ، وأموات القلوب بغلبة الكفر عليها حتى صارت لا تعقل عن الله أمره ونهيه ومعرفة الهدى من الضلال وكل هذه أمثال ضربها الله للمؤمن والإيمان والكافر والكفر .

ونحو الآية قوله : « أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ؟ » وقوله : « مَثَلُ الْفَرِيقَيْنِ كَالْأَعْمَى وَالْأَصَمِّ وَالْبَصِيرِ وَالسَّمِيعِ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً ؟ » .

والخلاصة — إن المؤمن بصير سميع نيّر القلب يمشى على صراط مستقيم فى الدنيا وفى الآخرة حتى يستقر به الحال فى الجنات ذات الظلال والعيون ، والكافر أعمى وأصم يمشى فى ظلمات لاخروج له منها ، فهو يتيه فى غيه وضلاله فى الدنيا والآخرة حتى يفضى به ذلك إلى حرور وسموم ، وحميم وظل من يحموم ، لا بارد ولا كريم .

ثم بين أن الهداية والتوفيق بيده سبحانه وحده فقال :

(إن الله يسمع من يشاء) أى إن الله يهدى من يشاء إلى سماع الحجة وقبولها بخلق الاستعداد فيه للهداية .

ثم ضرب مثلا لهؤلاء المشركين وجعلهم كالأموات لايسمعون فقال :

(وما أنت بمسمع من فى القبور) أى فكما لاتقدر أن تسمع من فى القبور كتاب الله فتهديهم به إلى سبيل الرشاد ، لاتقدر أن تنفع بمواعظ الله وحججه من كان ميت القلب لايستطيع معرفة الله ولا فهم كتابه وواضح حججه .

والخلاصة — كما لاينتفع الأموات بعد أن صاروا إلى قبورهم وهم كفار بالهداية والدعوة إليها — كذلك هؤلاء المشركون لاحيلة لك فيهم ولا تستطيع هدايتهم .

ثم بين عمل الرسول فقال :

(إن أنت إلا نذير) أى ما أنت إلا منذر عقاب الله لهؤلاء المشركين الذين طبع على قلوبهم ، ولم تكلف هدايتهم وقبولهم ماجئتهم به ، فإن ذلك بيده تعالى لابيدك ولا بيد غيرك ، فلا تذهب نفسك عليهم حسرات إن هم لم يستجيبوا لك .

ثم بين سبحانه أنه ليس نذيرا من تلقاء نفسه ، بل بإذن ربه وإرادته وأنه ما جاء إلا بالحق فقال :

(إنا أرسلناك بالحق بشيرا ونذيرا) أى إنا أرسلناك أيها الرسول بالإيمان بى وحدى ، وبالشرائع التى فرضتها على عبادى ، مبشرا بالجنة من صدقك وقبل منك ما جئت به من عندى ، ونذيرا بعقاب من كذبك وردّ عليك ما أوحى به إليك .

ثم بين فضله سبحانه على عباده ورحمته بهم وأنه لم يتركهم دون أن يبين لهم طريق الهدى والضلال فقال :

(وإن من أمة إلا خلا فيها نذير) أى وما من أمة خلت من بنى آدم إلا وقد بعث الله إليهم النذر وأزاح عنهم العلل كما قال : « لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » وقال : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً » وقال : « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ، فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ » .

ثم سلى رسوله عما يلاقيه من قومه من الإصرار على العناد والتكذيب وأبان له أنه ليس ببدع من بين الرسل فقال :

(وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبلهم جاءتهم رسلهم بالبينات وبالزبر وبالكتاب المنير) أى وإن يكذبك أيها الرسول مشركو قومك فلا تبتئس عما يفعلون ، فقد كذب الذين من قبلهم من الأمم رسلهم الذين جاءوهم بالمعجزات الباهرة والأدلة القاطعة وبالكتب الواضحة كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داود ، وبعد أن سلاه هدد من خالفوه وعصوه بمثل ما فعل بمن قبلهم من الماضين فقال :

(ثم أخذت الذين كفروا فكيف كان نكير) أى وبعد أن أتاهم الرسل بما أتوهم كذبوهم فيما جاءوهم به فأخذتهم بالعقاب والنكال ، فانظر كيف كان شديد عقابى بهم وإنكارى عليهم ، فإن تمادى قومك وأصروا على إنكارهم واستمروا فى عمايتهم حل بهم مثل ما حل بأولئك ، فتلك سنة الله لا تبديل لها ولا تغيير . « سُنَّةَ اللهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً » .

ولا يخفى ما فى هذا من شديد التهديد والوعيد .

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (٢٧) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ (٢٨) .

شرح المفردات

ألوانها : أى من أحمر إلى أصفر إلى أخضر إلى نحو ذلك ، الجدد : واحدها جدة (بالضم) وهى الطريق المختلفة الألوان فى الجبل ونحوه ، والغرابيب : واحدها غربيب وهوشديد السواد ؛ يقال أسود غربيب وأبيض يقق وأصفر فاقع وأحمر قان ، وفى الحديث « إن الله يبغض الشيخ الغربيب » يعنى الذى يخضب بالسواد ، وقال امرؤ القيس فى وصف فرسه :

العين طامحة واليدّ سابحة والرجل لافحة والوجه غربيب

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه دلائل وحدانيته وعظيم قدرته التى أعرض عنها المشركون عنادا واستكبارا ـ أردف ذلك ذكر مايرونه من المشاهدات الكونية المختلفة الأشكال والألوان لعل ذلك يعيد إليهم أحلامهم وينبه عقولهم إلى الاعتبار بما يرون ويشاهدون .

الإيضاح

(ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها) يقول سبحانه منبها إلى كمال قدرته : ألم تشاهد أيها الرائى أنا خلقنا الأشياء المختلفة من الشىء

الواحد ، فأنزلنا الماء من السماء وأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها وطعومها وروائحها كما هو مشاهد من ألوان الثمار من أصفر إلى أحمر إلى أخضر إلى نحو ذلك .

ونحو الآية قوله : « وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ » .

(ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) أى وخلق الجبال كذلك مختلفة الألوان من بيض إلى حمر إلى سود غرابيب كما هو مشاهد ، وفى بعضها طرائق مختلفة الألوان أيضا .

(ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك) أى وكذلك الناس والدواب والأنعام مختلفة الألوان فى الجنس الواحد ، بل الحيوان الواحد قد يكون فيه ألوان مختلفة ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

ونحو الآية قوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ » .

ولما عدد آياته وأعلام قدرته وآثار صنعه بين أنه لايعرف ذلك حق المعرفة إلا العلماء بأسرار الكون العالمون بدقائق صنعه تعالى ؛ فهم الذين يفهمون ذلك حق الفهم ويعلمون شديد بطشه وعظيم قهره فقال :

(إنما يخشى الله من عباده العلماء) أى إنما يخاف الله فيتقى عقابه بطاعته ـ العالمون بعظيم قدرته على ما يشاء من الأشياء وأنه يفعل ما يريد ، لأن من علم ذلك أيقن بعقابه على معصيته فخافه ورهبه خشية أن يعاقبه .

وقد أثر عن ابن عباس أنه قال : العالم بالرحمن من عباده ، من لم يشرك به شيئا ، وأحل حلاله ، وحرم حرامه ، وحفظ وصيته ، وأيقن أنه ملاقيه ومحاسبه بعمله .

وقال الحسن البصرى: العالم من خشى الرحمن بالغيب، ورغب فيما رغّب الله فيه، وزهد فيما سخط الله فيه ثم تلا الآية .

وعن عائشة قالت : «صنع رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا فرخص فيه ، فتنزه عنه قوم ، فبلغ ذلك النبى صلى الله عليه وسلم، فخطب فحمد الله ثم قال : مابال أقوام يتنزهون عن الشىء أصنعه ، فوالله إنى لأعلمهم بالله وأشدهم له خشية » ، أخرجه البخارى ومسلم .

ثم بين سبب خشيتهم منه فقال :

(إن الله عزيز غفور) أى إن الله عزيز فى انتقامه ممن كفر به ، غفور لذنوب من آمن به وأطاعه ، فهو قادر على عقوبة العصاة وقهرهم : وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم ، ومن حق المعاقِب والمثيبِ أن يُخشى .

إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ (٣٠) .

شرح المفردات

يتلون : أى يتبعون من قولهم تلاه إذا تبعه ، لأن التلاوة بلا عمل لانفع فيها ، وقد ورد : «رُبَّ قارئٍ للقرآن والقرآن يلعنه» والمراد من التجارة المعاملة مع الله لنيل الثواب ، وتبور : أى تكسد .

المعنى الجملى

لما بين سبحانه أن العلماء هم الذين يخشون الله ويخافون عقابه ـ أردف ذلك ذكر حال العاملين بكتاب الله العاملين بما فرض فيه من أحكام كإقامة الصلاة

و إيتاء الزكاة فى السر والعلن ، وأبان أن هؤلاء يرجون ثوابا من ربهم كفاء أعمالهم، بل أضعاف ذلك فضلا من ربهم ورحمة منه ، و يطمعون فى غفران زلاتهم ، لأنه الغفور الشكور لهم على ما أحسنوا من عمل .

الإيضاح

إن الذين يتبعون كتاب الله و يعملون بما فرض فيه من فرائض ، فيؤدون الصلاة المفروضة لمواقيتها على ما رسمه الدين بإخلاص وخشية من ربهم ، و يتصدقون مما أعطاهم ربهم من الأموال سرا وعلانية بلا بسط ولا إسراف ـ هؤلاء قد عاملوا ربهم راجين ربح تجارتهم بنيلهم عظيم ثوابه كفاء ما قدموا من عمل مع الإخبات والإنابة إليه ، و يبتغون فضلا منه ورحمة فوق ذلك ، وغفرانا لما فرط من زلاتهم ، وما اجترحوا من سيئاتهم ؛ فالله هو الغفور لما فرط من المطيعين من الزلات ، الشكور لطاعاتهم ، فمجازيهم عليها الجزاء الأوفى .

ونحو الآية قوله : « فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ » .

وَالَّذِى أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ إِنَّ اللهَ بِعِبَادِهِ لَخَبِيرٌ بَصِيرٌ (٣١) ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ (٣٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٣٣) وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ (٣٤) الَّذِى أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِنْ فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ (٣٥) .

شرح المفردات

الكتاب : هو القرآن ، مصدقا لما بين يديه : أى لما تقدمه من الكتب السماوية ، خبير بصير : أى محيط ببواطن أمورهم وظواهرها ، مقتصد : أى عامل به تارة، ومخالف له أخرى، سابق: أى متقدم إلى ثواب الله راجٍ دخول جنته ، بالخيرات أى بسبب ما يعمل من الخيرات والأعمال الصالحة ، بإذن الله : أى بتوفيقه وتيسيره، والحزَن : هو الخوف من محذور يقع فى المستقبل ، دار المقامة : أى دار الإقامة التى لا انتقال عنها أبدا ، وهى الجنة ، نصب : أى تعب ، ولغوب : أى كلال وفتور .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن الذين يتلون كتاب الله يوفيهم أجرهم ـ أكد هذا وقرره بأن هذا الكتاب حق وصدق ، وهو مصدق لمابين يديه من الكتب ، فتاليه مستحق لهذا الأجر والثواب ، ثم قسم هؤلاء الذين أورثوا الكتاب أقساما ثلاثة : ظالم لنفسه، ومقتصد ، وسابق بالخيرات ، ثم ذكر جزاء هؤلاء السابقين ، وأنهم يدخلون جنات تجرى من تحتها الأنهار وأنهم يحلَّون فيها أساور الذهب واللؤلؤ ويلبسون الحرير، ويقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور، ويقولون : إنه أحلنا دارا لا نصب فيها ولا تعب .

الإيضاح

(والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه) أى إن القرآن الذى أنزلناه عليك هو الحق من ربك ، وعليك وعلى أمتك أن تعمل به وتتبع مافيه ، دون غيره من الكتب التى أوحيت إلى غيرك ، وهو مصدق لما مضى بين يديه مما أنزل على الرسل من قبله فصار إمامًا لها .

(إن الله بعباده لخبير بصير) أى إن الله خبير بأحوال عباده ، بصير بما يصلح

لهم فيشرع لهم من الأحكام ما يناسب أحوال الناس فى كل زمان ومكان ، ويرسل من الرسل من هو حقيق بتبليغ ذلك للناس « اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ » .

(ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا، فمنهم ظالم لنفسه، ومنهم مقتصد، ومنهم سابق بالخيرات بإذن الله) أى أوحينا إليك القرآن ثم أورثناه من اصطفينا من عبادنا ، وهم هذه الأمة التى هى خير الأمم بشهادة الكتاب « كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » وجعلناهم أقساما ثلاثة :

(١) ظالم لنفسه مفرّط فى فعل بعض الواجبات مرتكب لبعض المحرمات .

(٢) مقتصد مؤدّ للواجبات تارك للمحرمات تقع منه تارة بعض الهفوات ، وحيناً يترك بعض المستحسنات .

(٣) سابق بالخيرات بإذن الله ، يقوم بأداء الواجبات والمستحبات ويترك المحرمات والمكروهات وبعض المباحات .

والخلاصة — إن الأمة فى العمل أقسام ثلاثة : مقصر فى العمل بالكتاب مسرف على نفسه . ومتردد بين العمل به ومخالفته . ومتقدم إلى ثواب الله بعمل الخيرات وصالح الأعمال بتيسير الله وتوفيقه .

وقال الحسن : الظالم الذى ترجح سيئاته على حسناته ، والمقتصد الذى استوت حسناته وسيئاته ، والسابق من رجحت حسناته على سيئاته .

(ذلك هو الفضل الكبير) أى ذلك الميراث والاصطفاء فضل عظيم من الله لايقدر قدره .

وبعد أن ذكر سبحانه أحوال السابقين بيّن جزاءهم ومآلهم بقوله :

(جنات عدن يدخلونها يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ، ولباسهم فيها حرير) أى بساتين إقامة يدخلها هؤلاء الذين أورثناهم الكتاب واصطفيناهم من عبادنا يوم القيامة ، ويحلون فيها أسورة من ذهب ولآلئ ويكون لباسهم حريرا .

(وقالوا : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن) أى و يقولون حينئذ : الحمد لله الذى أذهب عنا الخوف من كل ما نحذر ، وأراحنا مما كنا نتخوف من هموم الدنيا والآخرة .

ثم ذكر السبب فى ذهاب الحزن عنهم فقال :

(إن ربنا لغفور شكور) أى إن ربنا لغفور لذنوب المذنبين، شكور للمطيعين ، روى عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى قبورهم ولا فى نشورهم ، وكأنى بأهل لا إله إلا الله ينفضون التراب عن رءوسهم و يقولون : الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن إن ربنا لغفور شكور » .

والخلاصة — إنه أذهب عنهم الحزن من خوف العاقبة ومن أجل المعاش والوساوس الشيطانية .

ولما ذكر سرورهم وكرامتهم بتحليتهم بالحلى و إدخالهم الجنات — ذكر سرورهم ببقائهم فيها وأعلمهم بدوامها فقال :

(الذى أحلّنا دار المقامة من فضله لايمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب) أى إن ربنا لغفور شكور ، لأنه أنزلنا الجنة التى لاتحوّل عنها ولا نقلة ، ولايصيبنا فيها تعب ولا وجع ولا إعياء ولافتور .

والخلاصة — إنهم أتعبوا أنفسهم فى العبادة فى دار الدنيا فاستراحوا راحة دائمة فى الآخرة كما قال : « كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ » .

وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا ؛ كَذَٰلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ (٣٦) وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ ؟ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٣٧) .

شرح المفردات

لايقضى عليهم : أى لايحكم عليهم بموت ثانٍ ، يصطرخون : أى يصيحون أشد الصياح للاستغاثة ، نعمركم : أى نمهلكم ، للظالمين : أى للكافرين ، نصير : أى معين يدفع عنهم العذاب .

المعنى الجملى

بعد أن بين ما لعباده الذين أورثوا الكتاب من النعمة فى دار السرور التى قال فى مثلها القائل :

علياء لاتنزل الأحزان ساحتها   لو مسها حجر مسته سرّاء

أردف ذلك بذكر ما لأضدادهم من النقمة زيادة فى سرورهم بما قاسوا فى الدنيا من تكبرهم عليهم وفخارهم بما أوتوا من نعيم زائل وحبور لايدوم .

الإيضاح

(والذين كفروا لهم نار جهنم لايقضى عليهم فيموتوا ولا يخفف عنهم من عذابها) أى والذين ستروا ما تدل عليه العقول من شموس الآيات وأنوار الدلالات ، لهم نار جهنم لايحكم عليهم فيها بموت ثان فيستريحوا من الآلام ، ولا يخفف عنهم العذاب فيها ، بل كلما خبت زيد سعيرها .

ونحو الآية قوله « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ، قَالَ إِنَّكُمْ مَا كِثُونَ» وقوله: « إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِى عَذَابِ جَهَنَّمَ خَالِدُونَ. لاَ يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ» وقوله : « كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا » وقوله : « فَذُوقُوا فَلَنْ نَزِيدَكُمْ إِلاَّ عَذَابًا » .

ثم بين أن هذا جزاء كل كافر بنعمة ربه ، جاحد بوحدانيته فقال :

(كذلك نجزى كل كفور) أى وهكذا نكافئ كل جاحد لآلاء الله منكر لرسله ، فندخله نار جهنم بما قدم من سيئات فى الدنيا .

(وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذى كنا نعمل) أى وهم يستغيثون ويضجون فى النار يقولون ربنا أخرجنا منها وأعدنا إلى دار الدنيا نطعك ونعمل غير الذى كنا نعمل من معصيتك ، وقد علم منهم أنه لو ردهم إلى هذه الدار لعادوا إلى ما نهوا عنه .

وحينئذ يقال لهم تقريعا وتوبيخا :

(أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر؟) أى أو ما عشتم فى الدنيا أعمارا لو كنتم ممن ينتفعون بالحق لانتفعتم به مدة عمركم ؟

ونحو الآية قوله تعالى حكاية عنهم « فَهَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ ؟ » .

والخلاصة — إنه تعالى لايجيبكم إلى ما طلبتم ، لأنكم كنتم عصاة ولو رددتم لعدتم إلى ما نهيتم عنه .

روى أحمد عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لقد أعذر الله إلى عبد أحياه حتى بلغ ستين أو سبعين ، لقد أعذر الله تعالى إليه ، لقد أعذر الله تعالى إليه » .

(وجاءكم النذير) أى وجاءكم الرسولُ ومعه كتاب الله ينذركم بالعقاب إن خالفتم أمره وتركتم طاعته .

والخلاصة — إنه احتج عليهم بأمرين : طول العمل ، وإرسال الرسل .

ونحو الآية قوله: « وَنَادَوْا يَامَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ. قَالَ إِنَّكُمْ مَاكِثُونَ . لَقَدْ جِئْنَاكُمْ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ » وقوله : « كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ؟ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا : مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ » .

وقد استبان مما تقدم أنهم لايخرجون منها ، ومن ثم قال :

(فذوقوا فما للظالمين من نصير) أى فذوقوا عذاب النار جزاء مخالفتكم للأنبياء فى حياتكم الدنيا ، ولن تجدوا لكم ناصرا ينقذكم مما أنتم فيه من العذاب والسلاسل والأغلال .

إِنَّ اللَّهَ عَالِمُ غَيْبِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٣٨) هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ ، فَمَنْ كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِلَّا مَقْتًا ، وَلَا يَزِيدُ الْكَافِرِينَ كُفْرُهُمْ إِلَّا خَسَارًا (٣٩) .

شرح المفردات

ذات الصدور : هى المعتقدات والظنون التى فى النفوس ، والخلائف : واحدهم خليفة : وهو الذى يقوم بما كان قائما به سلفه ، مقتا : أى بغضا واحتقارا ، خسارا : أى خسارة ؛ فالعمر كرأس مال إذا اشترى به صاحبه رضا الله ربح ، و إذا اشترى به سخطه خسر .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر فيما سلف أنه ليس للظالمين من ينصرهم و يدفع العذاب عنهم ــ أردف ذلك ببيان أن الله محيط بالأشياء علماً ، فلو كان لهم نصير فى وقت مّا لعلمه .

إلى أنه تعالى لما نفى النصير على سبيل الاستمرار ، وكان ذلك مظنة أن يقال كيف يخلّدون فى العذاب وقد ظلموا فى أيام معدودات ــ أعقب ذلك بذكر أنه عليم بما انطوت عليه ضمائرهم ، وأنهم صمموا على ماهم فيه من الضلال والكفر إلى الأبد ، فمهما طالت أعمارهم فلن تتغير حالهم .

الإيضاح

(إن الله عالم غيب السموات والأرض) أى إن الله عالم ما تخفون أيها المشركون فى أنفسكم وما تضمرون وما ستنوون أن تفعلوه ، وما هو غائب عن أبصاركم فى السموات والأرض ، فاتقوه أن يطلع عليكم وأنتم تضمرون الكيد لرسوله ، وتريدون إطفاء دينه ، وتنصرون آلهتكم التى لا تنفعكم شيئا يوم القيامة .

ثم علل هذا بقوله :

(إنه عليم بذات الصدور) أى لأنه عليم بما تكنه السرائر ، وما تنطوى عليه الضمائر ، وسيجازى كل عامل بما عمل .

وفى هذا إيماء إلى أنه لو مد أعمارهم لم يرجعوا عن الكفر أبدا ، فلا مطمع فى صلاحهم .

ثم ذكر ما هو سبب آخر لعلمه بالغيب فقال :

(هو الذى جعلكم خلائف فى الأرض) أى هو الذى ألقى إليكم مقاليد التصرف والانتفاع بما فى الأرض لتشكروه بالتوحيد والطاعة .

(فمن كفر فعليه كفره) أى فمن غمط مثل هذه النعمة العظيمة فإنما يعود وبال ذلك إلى نفسه دون غيره ، لأنه هو المعاقب لا سواه .

ثم فصل ذلك وبيّنه بقوله :

(ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم إلا مقتا) أى وكلما استمروا فى كفرهم أبغضهم ربهم وغضب عليهم .

(ولا يزيد الكافرين كفرهم إلا خسارا) أى وكلما اطمأنوا إليه خسروا أنفسهم يوم القيامة وحق عليهم سوء العذاب .

والتكرير للتنبيه إلى اقتضاء الكفر لكل من الأمرين القبيحين على سبيل الاستقلال .

قلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ؟ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى السَّمٰوَاتِ أَمْ آتَيْنَاهُمْ كِتَاباً فَهُمْ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْهُ ؟ بَلْ إِنْ يَعِدُ الظَّالِمُونَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا إِلَّا غُرُورًا (٤٠) إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُورًا (٤١) .

شرح المفردات

أرأيتم : أى أخبرونى ، شرك : أى شركة ، يمسك : أى يحفظ ، وتزول : أى تضطرب وتنتقل من أماكنها .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه أنه هو الذى استخلفهم فى الأرض ـ أكد هذا بأمره صلى الله عليه وسلم بما يضطرهم إلى الاعتراف بوحدانيته وعدم إشراك غيره معه .

الإيضاح

(قل أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض) أى أخبرونى أيها المشركون عن شركائكم الذين تدعونهم من دون الله من الأصنام والأوثان ـ أرونى أىّ جزء من الأرض أو من الأناسى والحيوان خلقوا حتى يستحقوا الإلهية والشركة .

والخلاصة — أعلمتم هذه الآلهة ما هى ؟ وعلى أى حال هى ؟ فإن كنتم تعلمون أنها عاجزة ، فكيف تعبدونها ، وإن كنتم توهمتم فيها القدرة فأرونى أثرها ؟ .

(أم لهم شرك فى السموات) أى أم لهم شركة مع الله فى خلق السموات حتى يستحقوا ما زعمتم فيهم .

(أم آتيناهم كتابا فهم على بينة منه ؟) أى أم هناك كتاب أوتوه ينطق بأنا اتخذناهم شركاء ، فهم على حجة ظاهرة من ذلك الكتاب بأن لهم شركة معنا .

وخلاصة ما تقدم — أخبرونى عمن تعبدونهم من دون الله ، هل استبدوا بخلق شىء من الأرض حتى يعبدوا كعبادة الله ، أولهم شركة معه فى خلق السموات ، وآتيناهم برهانا بهذه الشركة .

الخلاصة : إن عبادة هؤلاء إما بدليل من العقل ، ولا عقل يحكم بعبادة من لا يخلق شيئا ، وإما بدليل من النقل ، وإنا لم نؤت المشركين كتابا فيه الأمر بعبادة هؤلاء .

وبعد أن نفى ما نفى من الحجج أضرب عنه بأن الذى حملهم على الشرك هو تقرير السلف للخلف وإضلال الرؤساء للأتباع وقولهم لهم : إن هؤلاء شفعاء يشفعون لهم عند الله إذا هم عبدوهم ، وإلى هذا أشار بقوله :

(بل إن يعد الظالمون بعضهم بعضا إلا غرورا) أى بل إنما اتبعوا فى ذلك آراء أسلافهم وضُلَّالهم ، وما هى إلا غرور وأباطيل .

ولما أبان حقارة الأصنام أرشد إلى عظمته تعالى فقال :

(إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا) أى إن الله يمنع السموات أن تضطرب من أماكنها ، فترتفع أو تنخفض ويمنع الأرض من مثل ذلك ، ويحفظهما برباط خاص ، وهو مايسميه العلماء نظام الجاذبية ، فجميع العوالم من الأرض والقمر والشمس والسيارات الأخرى تجرى فى مدارات خاصة بهذا النظام الذى وضع لها ، ولولا ذلك لتحطمت هذه الكرات المشاهدة وزالت عن أماكنها ، لكنها به ثبتت فى مواضعها واستقرت فى مداراتها .

(ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده) أى وإن أشرفتا على الزوال ما استطاع أحد أن يمسكهما من بعد الله .

والخلاصة — إنه لا يقدر على دوامهما وبقائهما على هذا الوضع إلا اللطيف الخبير .

ونحو الآية قوله : « وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ » وقوله : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ » .

(إنه كان حليما غفورا) ومن ثم حلم على المشركين وغفر لمن تاب منهم على عظيم جرمهم المقتضى تعجيل العقوبة لهم .

والخلاصة — إنه يحلم وينظر ، ويؤجل ولا يعجل ، ويستر ويغفر .

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ لَيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ ، فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا (٤٢) اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ ، فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّةَ الْأَوَّلِينَ ؟ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلًا (٤٣) .

شرح المفردات

وأقسموا : أى حلف المشركون ، جهد أيمانهم : أى غاية اجتهادهم فيها ، نذير : أى رسول . أهدى من إحدى الأمم : المراد بها اليهود أوالنصارى ، نفورا: أى تباعدا عن الحق ، مكر السيئ : أى المكر السيئ الذى فيه خداع وكيد لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يحيق : أى ولا يصيب ولا ينزل ، سنة الأولين : أى سنة الله فيهم بتعذيب مكذبيهم ، تبديلا : بوضع الرحمة موضع العذاب ، تحويلا : بأن ينقل عذابه من المكذبين إلى غيرهم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه تكذيبهم للتوحيد بإشراكهم الأوثان والأصنام وبكّتهم على هذا أشد التبكيت وضرب لهم الأمثال ليبين لهم سخف عقولهم وقبح معتقداتهم،

أردف ذلك بذكر إنكارهم للرسالة بعد أن كانوا مترقبين لها ناعين على أهل الكتاب تكذيب بعضهم بعضا، فقالت اليهود : ليست النصارى على شىء ، وقالت النصارى: ليست اليهود على شىء ، ثم هددهم بأن عاقبتهم ستكون الهلاك الذى لامحيص منه ، وتلك سنة الله فى الأولين من قبلهم ، وسنته لاتبديل فيها ولا تحويل .

الإيضاح

(وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءهم نذير ليكونُن أهدى من إحدى الأمم) أى وأقسم المشركون بالله أغلظ الأيمان وبالغوا فيها أشد المبالغة : لئن جاءهم من الله رسول ينذرهم بأسه ، ليكونن أسلك لطريق الحق وأشد قبولا له من أى أمة من الأمم التى خلت من قبلهم .

(فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا . استكبارا فى الأرض ومكر السيء) أى ولكن حين جاءهم الرسول انعكست الآية ، فما زادهم مجيئه إلا بعدا من الإيمان بالله وانصرافا عن الحق واستكبارا عن اتباع آيات الله ، ومكروا بالناس مكرا سيئا فصدوهم عن سبيل الله .

والخلاصة — إنه تبين أنه لاعهد لهم مع ادعائهم أنهم أوفى الناس ، ولا صدق لهم مع جزمهم بأنهم أصدق الخلق ، وصار مثلهم مثل الإبل التى نفرت من ربها فضلت عن الطريق فدعاها فازدادت بدعائه نفرة وصارت بحيث يتعذر أو يتعسر ردها .

ثم بين أن عاقبة مكرهم عدت عليهم بالوبال بقوله :

(ولا يحيق المكر السيء إلا بأهله) أى ولا يعود وبال ذلك إلا عليهم أنفسهم دون غيرهم .

روى الزهرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «لاتمكروا ولا تعينوا ماكرا فإن الله يقول : « وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ » ولا تبغوا ولا تعينوا باغيا

فإن الله سبحانه يقول : « إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ » ولا تنكثوا ولا تعينوا ناكثا فإن الله يقول : « فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ » .

وقد وقع مثل هذا فى كلام العرب فقد قالوا: من حفر لأخيه جُبًّا وقع فيه منكبًّا.

والعبرة فى الأمور بالعواقب ، والله يمهل ولا يهمل ووراء الدنيا الآخرة ، فإن لم يجاز الماكر فى هذه الدار فسيلقى الجزاء فى الآخرة « وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَىَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ؟ » .

ثم هددهم بأن يحل بهم مثل ما حل بمن قبلهم من العذاب فقال :

(فهل ينظرون إلا سنة الأولين) أى فهل ينتظر هؤلاء المشركون من قومك إلا أن أحل بهم من نقمتى على شركهم بى وتكذيبهم رسولى ـ مثل ما أحللت بمن قبلهم من أمثالهم الذين كذبوا رسلهم .

ثم علل انتظارهم للعذاب وتهديدهم به بقوله :

(فلن تجد لسنة الله تبديلا ، ولن تجد لسنة الله تحويلا) أى وهذه سنة الله فى كل مكذب فلا تغير ولا تبدل ، ولن يجعل الرحمة موضع العذاب ، ولن يحوّل العذاب من نفس إلى أخرى كما قال : « وَلاَ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » .

أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً، وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلاَ فِى الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيرًا (٤٤) وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلٰكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا (٤٥) .

المعنى الجملى

بعد أن هدد المشركين بجريان سنة الله فيهم بإهلاكهم كما أهلك المكذبين من قبلهم - نبههم إلى ذلك بما يشاهدونه من آثارهم فى رحلاتهم للتجارة فى الشام والعراق واليمن ، فقد خلت منهم منازلهم وسُلبوا ما كانوا فيه من النعيم بعد كمال القوة وكثرة العَدد والعُدد ، وكثرة المال والولد ، وما أغنى ذلك عنهم شيئا ولا دفع عنهم من عذابه لما جاء أمره ، لأنه لايعجزه شىء إذا أراده .

ثم ذكر حلمه بعباده وأنه لو آخذهم بما اجترحوا من السيئات ما ترك على ظهر الأرض إنسانا يدب على وجهها ، لكنه أخر عقابهم إلى يوم القيامة فيحاسبهم ويوفى كل عامل جزاء عمله إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر ، وهو البصير بحال عباده .

الإيضاح

(أو لم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ؟) أى أو لم يسر هؤلاء المشركون بالله فى الأرض التى أهلكنا فيها أهلها بكفرهم بنا وتكذيبهم رسلنا ، أثناء رحلاتهم التى يسلكونها إلى طريق الشام فى تجاراتهم ، فينظروا كيف كانت عاقبتهم - ألم نهلكهم ونخرب مساكنهم ونجعلهم مثلا لمن بعدهم فيتعظوا بهم ويزدجروا عما هم عليه من الشرك بعبادتهم الآلهة من الأوثان والأصنام ؟

ثم بين أنهم إذا ساروا على تمردهم وعنادهم فهم لايفلتون من عقابه فقال :

(وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض) أى ولن يعجز الله هؤلاء المشركون به المكذبون لرسوله فيسبقوه هربا وينجوا من الهلاك إذا هو أراد ذلك بهم ، لأنه لايعجزه شىء يريده فى السموات ولا فى الأرض .

وغير خافٍ مافى هذا من شديد الوعيد وعظيم التهديد لهم .

ثم علل عدم عجزه عن شىء فيهما بقوله :

(إنه كان عليما قديرا) أى إنه تعالى عليم بمن يستحق أن يعجل له العقوبة ، ومن قد تاب وأناب إلى ربه ورجع عن ضلالته ، قدير على الانتقام ممن شاء منهم ، وعلى توفيق من أراد الإيمان .

ولما كان المشركون يستعجلون بالوعيد استهزاء فيقولون « اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » بيّن أنه لايعاجلهم بالعقوبة على ما كسبوا ، لعلهم ينيبون أو ينيب بعضهم إلى ربه ، ويتوب إلى رشده فقال :

(ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة) أى ولو يعاقب الله الناس ويكافئهم بما عملوا من الذنوب واجترحوا من الآثام ما ترك على ظهر الأرض نسمة تدب لشؤم المعاصى التى يفتنون فيها .

(ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى) أى ولكن يؤخر عقابهم ومؤاخذتهم بما كسبوا إلى أجل حدده عنده لايقصرون دونه ولا يتجاوزونه إذا بلغوه .

(فإذا جاء أجلهم فإن الله كان بعباده بصيرا) أى فإذا حل الأجل فإن الله يجازى المكلفين بما عملوا من خير أوشر ، لايخفى عليه شىء من أمرهم ، دقّ أو جلّ ، ظهر أو بطن .

اللهم أحسن أعمالنا ظواهرها وبواطنها ، وتقبل منا ما نعمل مما يرضيك إنك أنت الخبير البصير .

مجمل ما اشتملت عليه السورة الكريمة من حكم وأحكام

(١) الأدلة على قدرة الله بإبداعه للكون وأنه المنعم المتفضل .

(٢) تذكير الناس بالنعم ليشكروها .

(٣) تثبيت فؤاد رسوله بذكر قصص المكذبين للأنبياء والمرسلين .

(٤) نداء الناس عامة بأن يتحلوا بالفضائل ، ويتخلوا عن الرذائل ولا يتبعوا خطوات الشيطان ، وينظروا في أبدع الرحمن من الآيات فى الأرض والسموات .

(٥) ضرب الأمثال لما سلف من القسمين ، وإيضاح الطائفتين المؤمنة والكافرة .

(٦) تقسيم المؤمنين إلى علماء محققين ، وصالحين متقين ، ثم تقسيمهم من حيث العمل أقساما ثلاثة .

(٧) وصف عاقبة الكافرين والمؤمنين وما يلقاه كل منهما يوم القيامة .

سورة يس

هى مكية إلا قوله : « وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ » فمدنية .

وآيها ثلاث وثمانون ، نزلت بعد سورة الجن.

ووجه اتصالها بما قبلها :

(١) إنه لما جاء فى السورة السالفة قوله: « وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ » وقوله: « وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ جَاءَهُمْ نَذِيرٌ » وقد أعرضوا عنه وكذبوه — افتتح هذه السورة بالقسم بصحة رسالته وأنه على صراط مستقيم لينذر قوما ما أنذر آباؤهم .

(٢) إنه قال فيما قبلها « وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُسَمًّى » وقال فى هذه : « وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا » وقال : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » .

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ

يٰس (١) وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ (٢) إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ (٣) عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٤) تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ (٥) لِتُنْذِرَ قَوْمًا مَا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ (٦) لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٧) إِنَّا جَعَلْنَا فِى أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِىَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ (٨) وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ (٩) وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٠) إِنَّمَا تُنْذِرُ مَنِ

اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ (١١) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ (١٢) .

شرح المفردات

(يس) تقدم الكلام فى نظائره من الحروف المقطعة فى أوائل السور ، وأن الرأى الرجيح فيها أنها حروف تنبيه نحو ألا ويا ، وينطق بأسمائها فيقال (ياسين) .

روى عن ابن عباس أنه قال يس : أى يا إنسان بلغة طىء ، والحكيم : أى ذى الحكمة ، على صراط مستقيم : أى طريق قويم من عقائد صحيحة وشرائع حقة، حق : أى ثبت ووجب ، الأغلال : واحدها غلّ ، وهو ما يشد به اليد إلى العنق للتعذيب والتشديد ، والمقمح : الذى يرفع رأسه ويغض بصره .

قال أبو عبيدة : يقال قمح البعير : إذا رفع رأسه عن الحوض ولم يشرب ، من بين أيديهم : أى من أمامهم ، فأغشيناهم : أى فغطينا أبصارهم ، والذكر : القرآن ، وخشى الرحمن : أى خشى عقابه ، بالغيب : أى قبل حلوله ومعاينة أهواله ، ماقدّموا : أى ما أسلفوا من الأعمال الصالحة والطالحة . وآثارهم : أى ما أبقوه بعدهم من الحسنات كعلم علّموه ، أو كتاب ألّفوه ، أو بناء فى سبيل الله بنوه ، أو من السيئات كغرس بذور الضلالات بين الناس ، فى إمام مبين : أى فى أصل يؤتم به .

الإيضاح

(يس والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم) أى أقسم بالقرآن المحكم الذى لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه إنك أيها الرسول لمن المرسلين الذين هم على دين قديم وشرع مستقيم .

(تنزيل العزيز الرحيم) أى هذا الصراط المستقيم ، والدين القويم ، تنزيل من رب العزة الرحيم بعباده .

ونحو الآية قوله : « وَإِنَّكَ لَتَهْدِى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِى لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ وَمَا فِى الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ » .

(لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون) أى إنا أرسلناك لتنذر العرب الذين لم يأتهم نذير من قبلك ، فهم فى غفلة عن معرفة الشرائع التى فيها سعادة البشر ، وإصلاح المجتمع .

وذكرهم وحدهم هنا ؛ لأن الخطاب كان معهم ، وهذا لايمنع أنه مرسل إلى الناس كافة كما قال : « قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّى رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا » .

(لقد حق القول على أكثرهم فهم لايؤمنون) أى لقد وجب العقاب على أكثرهم ، لأنه سبحانه سجل عليهم فى أم الكتاب أنهم لايؤمنون به ولا يصدقون برسوله ، لما علم من خبث نفوسهم وسوء استعدادهم ، فلا تعمُر قلوبهم بالإيمان ، ولا تُخْبِت لله فى أى زمان .

ثم ضرب لهم مثلا فقال :

(إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون) أى إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالا فهى واصلة إلى الأذقان ملصقة بها ، فهم من جرّاء ذلك مقمحون أى مرفوعو الرءوس ، إذ أن طوق الغُلّ الذى فى عنق المغلول يكون فى ملتقى طرفيه تحت الذقن حلقةٌ فيها رأس العمود خارجا من الحَلْقة إلى الذقن ، فلا يمكّنه من أن يطأطئ رأسه فلا يزال مقمحا .

والمراد منعناهم بموانع عن الإيمان تشبه ما ذكر ، فهم غاضو أبصارهم لايلتفتون إلى الحق ولا يعطفون أعناقهم نحوه ولا يطأطئون رءوسهم له .

ثم أكد ماسبق وزاده بيانا وتفصيلا فقال :

(وجعلنا من بين أيديهم سدًّا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لايبصرون) أى إنه زُيِّن لهم سوء أعمالهم وأعجبوا بأنفسهم واستكبروا عن اتباع الرسول وشمخوا بأنوفهم ولم يخضعوا لما جاءهم به وسدوا أبواب النظر عما ينفعهم ولم يقبلوا شيئا سوى ما هم عليه ؛ فما مثلهم إلا مثل من أحاط به سدّان من الأمام والخلف فحجباه عن النظر فهو لا يبصر شيئا .

والخلاصة — إنهم محبوسون فى سجن الجهالة ، ممنوعون عن النظر فى دلائل الأنفس ودلائل الكون ، محرومون عن التأمل فيما حل بمن قبلهم من الأمم الخالية والتفكر فى العواقب المستقبلة .

ثم ذكر فذلكة لما تقدم فقال :

(وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) أى وسواء على هؤلاء الذين حق عليهم القول ، إنذارك إياهم وتركه ، فإنه قد طبع الله على قلوبهم فهم لايؤمنون ، إذ قد خبثت نفوسهم وساء استعدادهم وغُشِّيت أبصارهم فلا تقدر على النظر فى الدلائل المشاهدة ، ولا تستطيع التأمل فى جمال الكون .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد		وينكر الفمّ طعم الماء من سقم

ثم أعقب ذلك ببيان من يتأثر بالإنذار فقال :

(إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم) أى إنما ينفع إنذارك من آمن بالقرآن واتبع ما فيه من الأحكام وخشى عقاب الله قبل حلوله ومعاينة أهواله ، فإنه سبحانه عظيم الرحمة ، أليم العذاب كما قال : « نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » .

فبشر هذا الذى اتبع أحكام الدين وخاف العقاب بمغفرة ما فرط منه من الزلات ، وأجر كريم ، ونعيم مقيم ، لا يستطاع وصفه مما لاعين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

ونحو الآية قوله : « إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ » .

ثم ذكر ما يؤكد الخشية من الله وخوف عقابه بقوله :

(إنا نحن نحيي الموتى ونكتب ما قدموا وآثارهم) أى إنا نحيي الموتى جميعا من قبورهم يوم القيامة ، ونكتب ما أسلفوا من عمل ، وتركوا من أثر حسن بعدهم كعلم علّموه أو حبيس فى سبيل الله وقفوه ، أو مستشفى لنفع الأمة أنشئوه ، أو أثر سيء كغرس الأحقاد والأضغان ، وترتيب مبادى الشر والعدوان بين الأنام .

روى ابن أبى حاتم عن جرير بن عبد الله البجلى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سنّ سنة حسنة فله أجرها وأجر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيئا ، ومن سن سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده لاينقص من أوزارهم شيئا ، ثم تلا : وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ » والمراد من كتابة ذلك مجازاتهم عليه إن خيرا فخير، وإن شرا فشر .

ثم ذكر أن الضبط والإحصاء لايخص أعمال بنى آدم ، بل يتناول جميع الأشياء فقال :

(وكل شيء أحصيناه فى إمام مبين) أى وبيّنا كل شيء وحفظناه فى أصل عظيم يؤتم به ويتبع ولا يخالف ، وهو علمنا الأزلى القديم الذى لايغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها .

ونحو الآية قوله : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » وقوله : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ . وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » .

وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُمْ

مُرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنْتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِثْلُنَا وَمَا أَنْزَلَ الرَّحْمٰنُ مِنْ شَيْءٍ ، إِنْ أَنْتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاَغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُمْ مِنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٨) قَالُوا طَائِرُكُمْ مَعَكُمْ ، أَئِنْ ذُكِّرْتُمْ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ مُسْرِفُونَ (١٩) وَجَاءَ مِنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَى قَالَ يَاقَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (٢٠) اتَّبِعُوا مَنْ لاَ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٢١) وَمَالِيَ لاَ أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٢٢) ءَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ يُرِدْنِ الرَّحْمٰنُ بِضُرٍّ لاَ تُغْنِ عَنِّي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا وَلاَ يُنْقِذُونِ (٢٣) إِنِّي إِذًا لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ (٢٤) إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ (٢٥) قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ قَالَ يَالَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ .

شرح المفردات

ضرب المثل : يستعمل تارة فى تشبيه حال غريبة بأخرى مثلها كما فى قوله : « ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَةَ نُوحٍ » الآية ، ويستعمل أخرى فى ذكر حال غريبة وبيانها للناس من غير قصد إلى تشبيهها بحال أخرى نحو قوله : « وَضَرَبْنَا لَكُمُ الأَمْثَالَ » أى وبيّنا لكم أحوالا غاية فى الغرابة كالأمثال ، والقرية : هى أنطاكية كما روى عن قتادة وعكرمة ، والمرسلون : هم رسل عيسى من الحواريين ، فعززنا : أى فقوّينا وشددنا ، البلاغ المبين : أى التبليغ الواضح الظاهر للرسالة ،

تطيَّرنا : أى تشاء منا ، لنرجمنكم : أى لنرمينكم بالحجارة ، طائركم : أى سبب شؤمكم مسرفون : أى مجاوزون الحد فى العصيان ، أقصى المدينة : أى أبعد مواضعها ، يسعى : أى يعدو ويسرع ، لاتغن : أى لاتنفع ، ولا ينقذون : أى لايخلصونى .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر أن هؤلاء المشركين قد ختم الله على قلوبهم فهم لايؤمنون — أردف ذلك بذكر مثل لقوم حالهم كحالهم فى الغلوّ فى الكفر والإصرار على التكذيب والاستكبار على الرسل وصم الآذان عن سماع الوعظ والإرشاد ، وهم أهل قرية أنطاكية ببلاد الشام ، فقد كان قصصهم مع رسل الله كقصص قومك معك فى العناد والاستكبار والعتوّ والطغيان .

الإيضاح

(واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون) أى واجعل أصحاب قرية أنطاكية مثلا لهؤلاء القوم إذ أصروا على تكذيب الرسل الذين أرسلوا إليهم كما أصر قومك على تكذيبك عنادا واستكبارا .

والمشهور لدى المفسرين ومنهم قتادة وغيره أن الرسل هم رسل عيسى عليه السلام من الحواريين بعثهم إلى أهل أنطاكية، وكان منهم ماقصه الله علينا فى كتابه.

ويرى ابن عباس واختاره كثير من جلّة العلماء أن الرسل هم رسل الله أرسلهم ردءا لعيسى عليه السلام مقررين لشريعته كهرون لموسى عليه السلام، ويؤيد ذلك:

(١) قولهم (ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون . وما علينا إلا البلاغ المبين) .

(٢) إنهم لو كانوا رسل المسيح لما قالوا لهم : (إن أنتم إلا بشر مثلنا) .

(٣) إن أهل أنطاكية آمنوا برسل المسيح إليهم ، فقد كانوا أول أهل مدينة آمنت بالمسيح ومن ثم كانت إحدى المدن الأربع اللاتى فيهن بطارقة ، وهن القدس

وأنطاكية والإسكندرية وروميه ، لأنها مدينة الملك قسطنطين الذى نصر دينهم ووطده ، ولما ابتنى القسطنطينية نقلوا البطريق من رومية إليها .

ثم فصل ما تقدم وزاده بيانا فقال :

(إذ أرسلنا إليهم اثنين فكذبوهما فعززنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون) أى حين أرسلنا إليهم رسولين من عندنا فأسرعوا فى تكذيبهما فقويناهما وشددنا أزرهما برسول ثالث فقالوا لأهل القرية : إنا إليكم مرسلون من ربكم الذى خلقكم بأن تخلصوا له العبادة وتتبرءوا مما تعبدون من الآلهة والأصنام .

والمشهور أن الرسولين الأولين كانا يوحنا و بُولُس والرسول الثالث شمعون .

ثم ذكر شبهةً كثيرًا ما تمسك بها المكذبون للرسل من الأمم الماضية .

(قالوا ما أنتم إلا بشر مثلنا وما أنزل الرحمن من شىء إن أنتم إلا تكذبون) أى قال أصحاب القرية للثلاثة الذين أرسلوا إليهم : ما أنتم إلا بشر مثلنا من غير مزية داعية لاختصاصكم بما تدّعون ، وما أنزل الرحمن إليكم رسالة ولا كتابا ولا أمركم فينا بشىء ، ما أنتم إلا كاذبون فى قيلكم إنا مرسلون إليكم .

وفى قولهم «ما أنزل الرحمن» إيماء إلى أنهم يعترفون بالألوهية لكنهم ينكرون الرسالة ويتوسلون بالأصنام . وحينئذ رد عليهم الرسل مؤكدين رسالتهم .

(قالوا ربنا يعلم إنا إليكم لمرسلون) أى فأجابهم الرسل قائلين : الله يعلم إنا رسله إليكم ولو كنا كذبة عليه لانتقم منا أشد الانتقام ، ولكنه سيعزنا وينصرنا عليكم وستعلمون لمن تكون عقبى الدار ؟.

ونحو الآية قوله : « قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ » .

ثم ذكر الرسل ما أمروا به فقالوا :

(وما علينا إلا البلاغ المبين) أى إنما علينا أن نبلغكم ما أرسلنا به إليكم ، فإن أطعتم ربحتم وكانت لكم سعادة الدارين ، وإن لم تجيبوا فستعلمون عاقبة تكذيبكم حين يحيق بكم الوبال والنكال .

والتبليغ المبين إنما يكون إذا اصطحب بالآيات الباهرة ، والمعجزات الدالة على أنهم رسل من عند الله

والخلاصة — ماعلينا من جهة ربنا إلا التبليغ المعزز بالآيات البينات وقد فعلنا. فأىّ شىء تطلبون منا حتى تصدقوا دعوانا ؟ .

ولما ضاقت بهؤلاء المكذبين الحيل وأعيتهم الحجج لجئوا إلى التهديد والوعيد .

(قالوا إنا تطيرنا بكم لئن لم تنتهوا لنرجمنكم وليمسنكم منا عذاب أليم) أى قالوا إنا تشاءمنا من تبليغكم ودعوتكم ، فقد افتتن بعض القوم بكم وتفرقت كلمتنا وانفرط عقد وحدتنا ، ولئن لم تنتهوا عن بثّ هذه الدعوة بيننا لنرجمنكم بالحجارة رجما ولنمثلن بكم شر التمثيل أو لنعذبنكم عذابا شديدا وأنتم أحياء .

والخلاصة — إنا إما نقتلكم أو نلقيكم فى غيابات السجون وننكل بكم تنكيلا عظيما .

حينئذ أجابهم الرسل :

(قالوا طائركم معكم) أى قالوا لهم سبب شؤمكم من أفعالكم لامن قِبَلنا كما تزعمون ، فأنتم أشركتم بالله سواه وأولعتم بالمعاصى واجترحتم السيئات ، أما نحن فلا شؤم من قِبلنا ، فإنا لاندعو إلا إلى توحيد الله و إخلاص العبادة له والإنابة إليه، وفى ذلك منتهى اليمن والبركة .

(أئن ذكرتم بل أنتم قوم مسرفون) أى أمن جراء أنا ذكرناكم وأمرناكم بعبادة الله مخلصين له الدين تقابلوننا بمثل هذا الوعيد ؟ ، بل أنتم قوم ديدنكم الإسراف ومجاوزة الحد فى الطغيان، ومن ثم جاءكم الشؤم ولادخل لرسل الله فى ذلك.

والخلاصة — أنتم قوم مسرفون فى ضلالكم متمادون فى غيكم تتشاءمون بمن يجب التبرك بهم من هداة الدين ، فقد جعلتم أسباب السعادة أسبابا للشقاء .

ولا يخفى ما فى ذلك من شديد التوبيخ وعظيم التهديد والتنبيه إلى سوء صنيعهم بحرمانهم من الخيرات ، ونحو الآية قوله تعالى حكاية عن قوم فرعون « فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ وَإِنْ تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَنْ مَعَهُ ، أَلَا إِنَّمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللَّهِ »

ثم أبان أنّ الحق لا يعدم نصيرا وأن الله يقيض له من يدافع عنه فقال :

(وجاء من أقصى المدينة رجل يسعى قال يا قوم اتبعوا المرسلين . اتبعوا من لا يسألكم أجرا وهم مهتدون) أى وجاء من أطراف المدينة رجل يعدو مسرعا لينصح قومه حين بلغه أنهم عقدوا النية على قتل الرسل فتقدم للذبّ عنهم ابتغاء وجه الله ونيل ثوابه ، قال يا قوم اتبعوا رسل الله الذين لا يطلبون منكم أجرا على تبليغهم ولا يطلبون علوا فى الأرض ولا فسادا ، وهم سالكون طريق الهداية التى توصل إلى سعادة الدارين .

روى أن هذا الرجل يسمى حبيبا ، وكان نجارا ، قال ابن أبى ليلى : سباقو الأمم ثلاثة لم يكفروا قط طرفة عين : على بن أبى طالب ، وصاحب يس ، ومؤمن آل فرعون . ورواه الزمخشرى حديثا ، وقال ابن كثير إنه حديث منكر .

ثم أبان لهم أنه ما اختار لهم إلا ما اختاره لنفسه فقال :

(وما لى لا أعبد الذى فطرنى وإليه ترجعون ؟) أى وما يمنعنى من إخلاص العبادة للذى خلقنى ، وإليه المرجع للجزاء يوم المعاد فيجازيكم على أعمالكم إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

وفى هذا تقريع لهم بتركهم عبادة الخالق وعبادة غيره ، وتهديد بتخويفهم بالرجوع إلى شديد العقاب .

ثم أعاد التوبيخ مرة أخرى مبينا عظيم حمقهم فقال :

(أأتخذ من دونه آلهة إن يردن الرحمن بضر لاتغن عنى شفاعتهم شيئا ولا ينقذون ؟) أى أأعبد من دون الله آلهة لاتملك من الأمر شيئا ، وهو لو أرادنى بسوء فلا كاشف له إلا هو ، ولا تملك الآلهة دفعه عنى ولا منعه .

(إنى إذا لفى ضلال مبين) أى إنى إذا فعلت ذلك واتخذت من دونه آلهة لفى ضلال بيّن لايخفى على من له أدنى مسكة من عقل ، فإن إشراك من لايخلق وليس من شأنه النفع والضر بمن يخلق وهو القادر على كل شىء ــ خطأ ظاهر وغلط واضح لدى أرباب الأحلام وذوى الحجا .

ثم التفت إلى الرسل وخاطبهم منيبا إلى ربه فقال :

(إنى آمنت بربكم فاسمعون) أى إنى آمنت بربكم الذى أرسلكم فاشهدوا لى بذلك عنده .

روى أنه لما قال ذلك وثبوا عليه وثبة رجل واحد فقتلوه ولم يجد من يدافع عنه . قال قتادة : جعلوا يرجمونه بالحجارة وهو يقول : اللهم اهد قومى فإنهم لايعلمون ، فلم يزالوا به كذلك حتى فارق الحياة .

ثم ذكر مآل أمره وما قاله حين وجد النعيم والكرامة ، فقال :

(قيل ادخل الجنة ، قال يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) أى قال الله له : ادخل الجنة كفاء ما قدمت من عمل وأسلفت من إحسان ، فلما دخلها وعاين ما أكرمه الله به لإيمانه وصبره قال : ليت قومى يعلمون بما أنا فيه من نعيم وخير عميم لإيمانى بربى وتصديقى برسله وصبرى على أذى قومى ، وإنما تمنى علم قومه بحاله ليحملهم ذلك على اكتساب المثوبة مثله بالتوبة عن الكفر والدخول فى حظيرة الإيمان والطاعة اتباعا لسنن أولياء الله الذين يكظمون الغيظ ويترحمون على الأعداء .

قال ابن عباس : نصح قومه حيا بقوله : (يا قوم اتبعوا المرسلين) و بعد مماته بقوله : (يا ليت قومى يعلمون . بما غفر لى ربى وجعلنى من المكرمين) .

وإلى هنا وقف القلم فى تفسير هذا الجزء من الكتاب الكريم . وكان الفراغ منه بمدينة حلوان من أرباض القاهرة قاعدة الديار المصرية فى اليوم الثامن عشر من شعبان سنة أربع وستين وثلثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية .

والحمد لله على إحسانه وإنعامه ، وصلّ ربنا على محمد وآله الطيبين الأخيار وصحبه الأبرار .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء